MAYSALOON HADI

رواية
Novel

Mohammed's brothers

ميسلون هادي

أخوة محمد

t.me/read4lead

الذاكرة
للنشر والتوزيع

أخوة محمد

رواية

اخوة محمد "رواية"
ميسلون هادي
رقم التصنيف: 813
الواصفات: : الأدب العربي/ / القصص العربية / / العصر الحديث/ / العراق/
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق- بغداد:(2018/1817)
ISBN: 978-9922-600-11-6

مكتبة
t.me/read4lead

لوحة الغلاف: للفنان العراقي هاشم حنون

الطبعة العربية 2018

الذاكرة
للنشر والتوزيع
بغداد - الصرافية - مجاور الجسر الحديدي
نقال: 07800740728 / 07700488780
بريد إلكتروني: info@althakera.com / www.althakera.com

ميسلون هادي

أخوة محمد

روايـة

-1-

حدث سعيد

تبخر سوق الصفارين ولم ينجُ منهم سوى صفّارٍ واحدٍ، وانكمشت مهنة السراجين ولم يتبقَّ من مزاوليها سوى ثلاثة.. أما سوق الرواية فباقٍ ويتمدد في الكون، بحيث تنازلت الأرض الآهلة بالشطآن والحقول عن أحوالها، وأصبحت، من تلال العمادية وحتى جنات عدن، مسكناً لكُتّاب الرواية ممن تزايد تعدادهم حتى تفوق على عديد سكانها الأوائل من الرعاة والمزارعين وصُناع الفخار. ومع مُضي السنوات، واختفاء القنافذ والسناجب وأغلبية الحلزونات أيضاً، فلن يتبقى لهؤلاء الكتاب الكثير مما يتخيلوه من مباهج الريح والغيم والمطر، أو باقي أفراح أخرى كانوا ينصتون إليها جذلين في حجرة الموسيقى التي تعزف فيها العنادل والحمائم والعصافير.

وجد الروائيون أنفسهم معنيين أكثر من غيرهم بمفاتن ذلك الماضي الجميل، وتحركت أيديهم للكتابة عن تلك الاختفاءات الغامضة التي لا زالوا يتكاثرون ويصارعون المراجع والملاحق من أجل تفسيرها أو فهمها. فما هي الأشياء التي يجب أن يتذكروها دائماً؟ وما هي الأشياء التي يجب أن ينسوها، بل وماذا يفعلون للحفاظ على التاريخ الكامل للناس، المعروف وغير ذلك، لكي لا يتلاشى ببساطة دون أثر أو شهود.

صوت جاءني من غمامة الرماد التي أظلتني، وقال لي: هل هذا التكاثر هو أمر سيء يضيف حالة جديدة إلى حالات اللعب الخاطئة، أم أنه أمر جيد سيؤدي بنا إلى عاقبة أفضل؟.. ولم يكن أيٌّ من الظنّين في محله حتى التقيت بجارتي الجديدة أورشينا التي سقطت عينها اليمنى أمام علياء وباقي أطفال الزقاق.

قلبتُ مرآة السائق باتجاهي فوجدت تحت غمامة الرماد، امرأة متربة غطس رأسها في عنقها، ورسم على ظهرها درجات من الانحناء كلما رأيتها تذكرت قصة رجل مسن محني الظهر كان يسير في الطريق بأمان الله، فالتقاه فتى بريعان العمر، و قال له ساخراً بما يتطلب هذا العمر من طيش الشباب: بكم القوس يا عم؟ أجابه الرجل المسن: إن أطال الله بعمرك سيأتيك بلا ثمن.

الثمن لم يكن وسماً على الخرطوم، ولا قذفاً من بطن الحوت، أو نبذاً إلى العراء، وإنما كان ألف خيال قادم من ألف روح وروح فاض بها الكيل وملّت من أمهات الكتب الضخمة، ونهايات الأفلام القديمة، فراحت تبحث عن كلمة خام تأتي بلا ميقات بحيث يمكن تذوقها قبل كتابتها.. مفردة راقصة متحركة تُشم وتُحس وتُشرب بانتشاء .. وأحسن ما يجعلها على هذه الصورة هو أن يُفتن بها الكاتب أولاً قبل أن يَفتن بها غيره، فيشمل برائحة العجين عندما

يتنفخ وقت الاختمار، ويرتعش لصوت الرعد عندما يسمعه وقت الخريف.

قطرات المطر المتساقطة أيضاً لن يدوخ بسحرها لولا صوتها الفتي المنعش، ورائحتها الفاترة التي ينفخها التراب مع بخار خفيف يتصاعد في الهواء.. أما إذا راح المطر ينزل مدراراً من السماء، فإنه سيستيقظ له حتى وإن كان غارقاً في النوم، وسيتنفس رحيقه الأخاذ من أفواه التراب المفتوحة أينما تغلغل المطر وتثقّبت به أدَمات الأرض. لولا هذا كله لما كان بالإمكان استمراري مع قلة من أصدقائي.. يحبونني لأني أحبهم واستيقظ منذ السادسة صباحاً من أجلهم.... وأول استيقاظي من النوم سأجد فتاة صغيرة تلعب بالطين الحر، وتحّدث ما بين يديها بصوت عال..

عند شروق الشمس أكون على موعد معها، ومع ما تصنع بيديها من نسخ الدمى الطرية التي إن نظرتُ إليها ملياً تحركتْ باتجاهي، وهبتْ منها رائحة طين نقية كأنها تتضوع من رواسب غرين النهر التي لا تجف أبداً.. تجتاز خيالي قادمة لا أدري من أين.. وأحياناً تؤرقني لأنها تمشي في كل الاتجاهات، وأحاول أن استبقيها وأتفاهم معها.. أناديها تعالي ماذا تريدين؟، ولماذا تختارين المجيء إليّ لإيقاظي ثم تهربين؟.. هنا يكون عليّ أن أعرف بماذا أحستْ، وكيف جاءتْ، وأين ذهبتْ؟ وفي الصباح الباكر سأعرف هذا عندما

أعاود حديثي معها بعد أن اشرب الشاي مع قليل من الطعام.. رأسي يعرف الكثير من الأشياء التي لا أعرفها.. وأنا فعلاً لا أعرف الكثير .. وأحب أكثر أن أعرف منه .. فمن هو رأسي هذا؟

صورته في مرآة السائق منكوش الشعر لا يدل على الكثير أو القليل من المعرفة، المرآة أظهرت بشكل قاطع بأني شمطاء بوجه لا ينتبه إليه أحد... أحمد الله أن تقدمي في السن لا يمكن نكرانه، وإنْ كبرت سينفضّ الجمع المذكر السالم عني وعن كل من لف لفي من الشاعرات والكاتبات.. الحمد لله أني أكبر من جهة، غير أني من جهة أخرى أفكر بأن أغطي بعض عيوب وجهي بخصلات الشعر، وأن أعدّل بها تلك المناطق التي تتقعر في الصدغين وحول الخدين.. فلتقدم العمر علامة واحدة لا غير.. ينسحب الجلد كله من مكانه ويحتاج إلى منفاخ يعيده إلى شكله الأولاني..

السيارة ارتجت فجاة لاصطدامها بالرصيف، وكان هناك شحاذ مقطوع اليد يخصف من ورق الشجرة، وصوت امرأة يرتفع قادماً من هوة سحيقة.. سمعتُه يزغرد قبل أن افتح باب السيارة.

- أستاذة أستاذة أستاذة..

- .....

- أهلا أستاذة.. هل أنا جيرانك؟.. لا أصدق هذا. لا أصدق هذا. لا أصدق أبداً.

أول ما فكرت به هو أن أعدل ظهري واخفي حدبتي التي كونتها أوقات الحنو الطويل على الكتابة.. وثمة فاضل عزاوي يحذرنا من لبس القناع لأنه قد يسقط منا ونحن نسير، وكانت حدبتي تعاود ظهورها في كل مرة أنسى فيها تعديل ظهري.. وحتى لو حافظت عليه بوضع جيد، فما فائدة هذا مع ملابس عمل غير لائقة كنت أرتديها أمام هذه الفتاة التي استقبلتني بحفاوة كبيرة سأعرف سرها بعد يوم واحد فقط. كانت القطة تغسل وجهها بيديها، والشحاذ المعوق قد ابتعد وهو يُظهر يده المقطوعة على الملأ، والغبار يعمي الخياشيم والخراطيم.

- أهلا بالأستاذة. اهلاً بالأستاذة. أهلاً بالأستاذة.

تعودتُ أن لا يعرفني أحد من الناس.. لا في العيادة ولا في المطار ولا في القطار.. ما عدا مرات قليلة من أيام الحصار عندما كنت أكتب عمودا في مجلة أسبوعية، وكان الجلد لا يزال في مكانه الأولاني قبل التخاذل و الانسحاب من أمام.. ما عدا أيضاً بضع مرات قليلة أكون فيها داخل عيادة طبيب أسنان.. وأحيانا عند الذهاب إلى شارع الكتب .. لهذا وجدت من الغريب أن تستقبلني تلك الفتاة الثلاثينية المحجبة بوجه متهلل وهي تزغرد (أستاذة أستاذة أستاذة)..

في العادة تكون ملابسي بسيطة في أي مكان أذهب إليه، ولي صديقة كاتبة كانت لا تتخيل نفسها في بدلة رسمية أو ثوب من

الحرير أو زينة من الذهب ، تقول إنه من المحتمل أن تتعرض إحدى قبائل الأمازون، أو دارفور، للانقراض نتيجة لتعدي مناجم الذهب عليها في عقر دارها، فكيف تسمح لنفسها أن تشجع شركات التنجيم على انتهاك وتخريب أراضي الأمازون والنوبة، أو إلحاق الأذى بالسكان الأصليين والتجمعات المحلية في تلك المناطق؟ ديدن الكاتبات هذا سيكون بادياً للعيان حتى في حلقات النقاش مع أصحاب المقام العالي من المفهرسين والمؤرخين والنقاد، فكيف إذا كانت إحداهن تقود مركبة محملة بالكراكيب والقلاقيل؟

ذهبتُ وعدت بملابس العمل إلى هذا البيت الجديد، وبعض أصابعي لا تزال تحمل آثار برتقالة أكلتها على عجل بعد أن اغلقت باب السيارة، وذهبت لجلب بعض النواعم الزجاجية والتحفيات القابلة للكسر من البيت القديم.. لم أتوقع أو أتخيل أن يستقبلني أحد بالزغاريد، والحمد لله على كل شيء.

- أستاذة.

نظرتُ إلى المرآة نظرة سريعة قبل النزول من السيارة، فهالني ما رأيت.. تظاهرت بأني أغلق مذياع السيارة لكي أقلب شعري على جهته الأخرى، وألّمه داخل شريط مطاطي كان موجوداً في يدي. ولكن ما فائدة شريط مطاطي مع هذا المنظر الرث؟، ما فائدة الانتباه بعد فوات الأوان؟.. من السهل جعل العيون تلفتت، ولكن

من الصعب جعل القلوب هي التي تتلفت إليك.. مثلٌ واسيت به نفسي بعد أن قدمتْ لي الفتاة نفسها واحدة من الجيران، ثم ألحت في مساعدتي بتنزيل كارتونات الأكواب والصحون الزجاجية من السيارة.... وكما يبدو فأنها قد استغربت أن لا يوجد من يساعدني في هذه المهمة، وأظهرت استعدادها لحمل حتى كنتور الملابس إن اقتضى الأمر.

- لم أكن أعلم من اشترى هذا البيت.. يا ربي.. هو أنت.. أنت يا أستاذة.. أستاذة.. أستاذة.

- .....

- أنا محظوظة أنني ولدت في هذا الزقاق؟ خليني أدور حول السيارة لكي أساعدك في نقل كل هذه الحمولة من النواعم.

خجلتُ قليلاً، ووجدت صعوبة في الرد عليها بجملة تهكمية كما يفعل زوجي عادة.. فلا أعرف ما وجه الحظ في هذه الجيرة.. أو ماذا حدث لكي تستقبلني تلك الفتاة بمثل هذا الضجيج.. أنا فاقدة لانتباهي تماماً، وأعيد مع نفسي ما يجب أن أقوله في محاولة لتفادي أي خطأ محتمل قد يؤدي إلى تجربة كابوسية لا يمكن تصحيحها... في الكتابة فقط المراجعة ممكنة لتلقين الخاطيء الدرس غيابياً، وقصم ظهره حتى بعد فوات الاوان.

- نعم اشترينا البيت قبل شهر تقريباً.

- هل ستكونين وحدك في هذا البيت؟

- نعم فأنا أتواجد في بغداد أغلب الوقت. وكل أولادي مع زوجي خارج العراق..

- واو.. واو.. أنت تذكرينني بماريا؟

- ماريا؟

- نعم ماريا.. زوجة مالك هذا البيت قبلكم.

- التقيتها مرة واحدة عندما جئت أتفرج على هذا البيت... ولكني أعرف للمرة الأولى بأنها رفضت أن تترك بغداد مع عبد الملك زوجها.. هل حقاً حدث ذلك؟

لا زالت الدموع تترقرق في عينيها فرحاً بهذا الحدث السعيد بحيث لم تسمع سؤالي.. بدت وكأنها تغني "من منكمو يحبها مثلي أنا.. مثلي أنا.. مثلي أناااااا"، ثم قلبتْ وجهها على شكل عقربة لكي تحبب نفسها. عكنشتْ أنفها بقوة حتى ظننتُ أني أصغر بناتها.. ثم بدت وكأنها تُبيّت لي أمراً ما، لأنها أصبحت تتأمل ملامح وجهي كما لو كنتُ قد قلبتُ نظرية الارتقاء فغدوتُ قرداً مرة أخرى.. أو لربما هي تفكر بأمر آخر؟ لربما سترثني هذه الجارة أو تريد قتلي للسطو على مخطوطاتي على طريقة فلم اسمه (ميت عند الوصول).. فمنظري لا يمكن أن يكون ساحراً إلى هذه الدرجة.. وتلك الفتاة لم تكتف بقلب ملامحها لأجل التحبب، وإنما

كانت تحمل الأكواب الزجاجية في كاونتر المطبخ، هذا ما أصرّتْ عليه، وتُقلّبها بطريقة هرمية غريبة الشكل.. حتى الكارتونة الفارغة التي ننتهي منها كانت تقلبها إلى وضعها الصحيح إذا ما وجدت أن الكتابة على جوانبها مقلوبة. قلبتْ المطبخ تقريباً كله إلى وضعه الصحيح.. وأنا التي أصبحت أساعدها، حتى قالت اخيراً:

- الماء مقطوع أستاذة.

- يعني هذا أنْ نتوقف يا عزيزتي.

- لا يصيبك اليأس يا أستاذة بمجرد أن تجدي حنفية البيت مقطوعاً عنها الماء..

- انا لست مصابة باليأس.. مشكلتي أني مصابة بالأمل؟

ضاعت وكادت أن يغمى عليها. فغرت فمها عجباً مما تسمع.. لسان حالها يقول هكذا تنهض الأمم، ثم اقتربت من رأسي واقترحت أن تدلني على طريقة لتصفيف شعري المنكوش. راحت تدور حولي وكأنها تريد أن تسحرني وتحولني من قرد إلى غزال شارد، ثم تراجعت عن فكرتها بعد قليل وقالت: لا.. لا.. لا دعيه هكذا يا أستاذة، مثل علياء وبتهوفن وآينشتاين وباقي العظماء من مجانين العالم...

- من هي علياء؟

- آسفة آسفة يا استاذة.. أعتذر منك. أنا آسفة.

ماذا تريد مني هذه الفتاة المجنونة؟.. المسيحيون هجّوا.. اليهود انقرضوا.. الصابئة تبعثروا.. السنة والشيعة تعاركوا. ومنابع المياه ستقوم الحروب الضروس من أجل السيطرة عليها.. وهناك عباءات التخفي التي تتصدى لموجات الضوء وتجعلها تتدفق حول الأهداف العسكرية لتصبح غير مرئية... وبعد سنوات ستقوم الحرب الإلكترونية وتؤدي إلى أعظم الخسائر البشرية والمادية، وقد يفنى الناس جميعهم بأقل جهد ممكن ومن دون تحريك جندي واحد؟.. فما بها هذه الفتاة تدور حولي منذ ساعات مثل زهرة عباد الشمس، وتطاردني وكأنها في مضمار سباق؟ وماذا سأفعل مع هذه الجيرة الغريبة التي تبدو أنها ستأخذ مني أعز ما لدي... عزلتي.

-2-

الزعيم الروحي

وضعتُ خطة محكمة مع نفسي لكي لا أتحدث معها.. بحيث أجعلها تختفي من الوجود.. ليس سهلا الحديث على كاتب حتى بدون هذه الخطة.. سهلٌ عليه أن يكتب فقط، وأن يتحدث مع برتقالات الحديقة ويتحاور مع القواقع وديدان القز، وأن يمشي وحيداً بين الناس يحدث نفسه.

فهمتُ في اليوم التالي، بعد أن تقدمتُ في السن يوماً واحداً، وزال عني تعب اليوم السابق، أنها كاتبة ايضاً، ولديها بعض القصص القصيرة المنشورة على بعض المواقع والصفحات، وهي الآن تتصفح روايتها الأولى وتطلب مني النصيحة.. جلسنا هناك في الحديقة مع خطتي ومسطرتي.. لا يمكن ان أدعها تدخل وتقلب كل شيء في طريقها.. صفنتُ وقلت لها:

- هل بدأتِ الكتابة؟ هل تحرك الرجل؟

- أي رجل؟

- الزعيم الروحي.

خطتي بدأت.. فلم أعد اسمع زغاريدها، إنما قالت:

- أنا بدأت.. نعم بدأتُ.. وكتبت كل فصول الرواية. لكنها ليست عن الزعيم الروحي؟

- عن ماذا تكتبين؟

- أكتب عن الشارع الذي نسكن فيه.

- .....

- ها استاذة.. استاذة استاذة.. لماذا سكتِّ؟

- سأعد الشاي.

- لا.. لا أريد الشاي أستاذة أستاذة أستاذة.. أريد فقط أن تنصحيني.. قد أكون كتبت رواية غبية، فأحببتها كما يحب الأب ابنه.

عادت زغاريدها إلى الحديقة، فماذا يمكن أن أفعل؟:

- بماذا يمكن أن أنصحكِ؟ الأب قد انجب وانتهى الأمر. فائزة أحمد التي قالت ربي يخليكي يا أمي قد ماتت أمها.. وهي أيضاً ماتت. هل تعرفين أين هما الآن؟

- بصراحة لا أفهم ماذا تقصدين.

- لا يوجد بصراحة ما تقصينه عن هذا الشارع.. فماذا يمكن أن يوجد فيه سوى القتل والخطف والتفجيرات؟.. حرارة أيام لاهبة مع جرحى وأموات، وغير ذلك من الآلام والأهوال والظلمات...

- عرفتك لست متشائمة؟

- عندما نستيقظ قبل الفجر بقليل سنجد الظلام يتحول إلى ضوء بتدرج نكاد لا نشعر به.. هوب.. فجأة نجد أمام أعيننا كل الضوء.

- استيقظ بالعادة متأخرة من النوم يا أستاذة، فأنا عاطلة عن العمل وأمي هي التي تصرف عليّ.

- أين أبوك؟

- مات في وقت مبكر.

تنفستُ بعمق لكي أطرد بعض الأسى، ثم قلت لها:

- ما أكثر القصص في هذه الحياة.. كثيرة ولا تنتهي، وأنا أريد الهروب منها، والاقتراب من كل شيء موجود في ظل هذه الحياة قبل أن يدركه الضوء الساطع. هل هذا الظل وتدرجاته موجود فيها، أم أن الرواية صلبة كضرع بقرة سيصعد إليه العجل بفمه، ويفرغه من الحليب في شربة واحدة؟.

- ليت الجدار قد سقط عليّ قبل أن أسمع هذا الكلام.

- ممكن أعرف لماذا تريدين للحايط أن يسقط عليك؟

- أنا يا أستاذة قد أكون غبية، أو لربما بسيطة جداً، ولكني أشعر ببرقع خفيف من الضوء بينك وبيني. أراك وأفهم ما تريدين من كلمة واحدة، وأنتظر أن ترينني أيضاً.

وجهها كان أبيض اللون عند ولادتي على يديها قبل يوم واحد، و ظلت تعاملني وكأني طفلها الأول في هذه الحياة، وبما أنها تظن بأن هذا الطفل قد أساء إليها، فوجهها الآن يتحول لونه من الأبيض إلى الأسمر الداكن، ويمتلئ بغمازتين تستطيع البعوضات النفاذ إليها.

- هل هي سيرة ذاتية ومذكرات؟

- كلا، إنها رواية.. والله العظيم رواية؟ وستجدينها تبدأ من هذا البيت الذي كانت تسكنه ماريا .. ماريا زوجة عبد الملك الذي اشتريتِ منه هذا البيت.

- ما قصدته هو هل هناك خط أو نسق روائي يتظمها؟

- نعم نعم أستاذة....هذا الشارع قلبتُه رأساً على عقب ثم عدّلته مرة أخرى.. فأكتشفت بأن أولاد ورجال شارعنا كلهم يحملون اسم محمد.. ماعدا عبد الملك زوج ماريا. أمامك مثلاً يسكن محمد الصباغ.. والبيت الملاصق لبيتك هو بيت رجل المخابرات محمد.. يقابله بيت الصيدلانية أم محمد، و بيت الأستاذ محمد مدرس الرياضيات، وبيت صاحب محل السجاد أبو محمد، و طبيب المشرحة أيضاً اسمه الدكتور محمد.

قد تكون واحدة من تلك البعوضات قد لدغتني.. وهي التي أصابتني بالحمى، فشعرت ببعض الحر في أذني تقريبا.. قلت لنفسي

يا سلام.. هذا بارع وليس غبياً.. رأسي يستقبل بعض ثرثراتها بشكل جيد، فهل لديها القدرة على أن تقلب أفكاري لصالحها من خلال جهد كهربائي، أو موجات خفية من الطاقة تخرج من رأسها، ثم تنتشر إلى جميع الاتجاهات.. أو لعلها تتناول الكثير من مضادات الاكتئاب التي شفتها من المرض، ثم كان من أعراضها الجانبية أن حوّلتها إلى هذا الكائن النشيط المفعم بالحيوية؟.

- وماذا ستفعل جموع محمد هذه؟ هل سينتحرون؟ هل سيقتل بعضهم بعضاً، وإلى غير ذلك مما يفعلون؟.

- بعضهم تقاتل بسبب متر واحد.. وبعضهم فعل أكثر من ذلك، ولا أريد أن أحرق أحداثها يا أستاذة، فأمحو ما قد تتركه في نفسك من أثر.

- هل تحدد كل شيء، هل سأقرأها دون أن أعرف؟ أية رواية هذه التي تحترق وتُمحى إذا ما تحدثنا عنها قليلاً، فماذا تقولين يا أورشينا؟ هل نتصل بالإطفاء لكي ننقذها من الحرق؟

- هههههههه. أستاذة أستاذة أستاذة.. هههههه.. أعتذر أستاذة عن استعمال مفردة الحرق هذه.. أعرف أستاذة أنك تكرهينها، وتقولين إنها مبتذلة وفقيرة.. فقصدي يا أستاذة أن تقرأيها بدون تصور سابق عنها، وأن تكتبي لي بعض الملاحظات.

- .....؟

t.me/read4lead

- ليس الآن.. بالتاكيد ليس الآن، ولكن بعد أن ترتاحي قليلاً من تعب الانتقال إلى هذا البيت. أنا احبك جداً. أنا محظوظة لأني جارتك. أنا لا أصدق ما يحدث لي. أنا أنا أنا أحبك.. أستاذة أستاذة أستاذة.

خطتي فشلت.. أصابني الثوَل تقريباً.. أشعر بأني مجازة وهناك إله غاضب قد مزق إجازتي وقال لي هيا اخرجي من البيت واذهبي إلى العمل.. أردت أن أصرفها عني لولا أني وجدت فكرة الرواية جيدة، ولدي الكثير من الوقت قبل أن أفتح لاب توبي وأبدأ عملي.... وبعد؟ يجب أن لا أعطيها أهم نصائحي ولا أيضاً أن أتمادى في تغاضيها.. ولكنها هدأت، وأصبحت تنظر لي مثل قطة بريئة، فاشفقت عليها وقلت لها:

- ما اسم روايتك؟

ضحكت بخجل ووجهها لا يزال أحمر اللون، ثم قالت:

- إخوة محمد.
- أها!
- حقاً ؟ أكل هذا موجود في العنوان؟
- أنا لم أقل سوى كلمة واحدة.
- فقد تعجبك الرواية إذن يا أستاذة؟

ضحكت لمجرد أن نظرتُ إلى وجهها، فسألتني، بخوف، لماذا أضحك، فكذبت، وقلت لها بأني أضحك لأني دخلت إلى متحف الشمع، وعثرت على كلمة قديمة أضحكتني، وفي الحقيقة كنت أضحك بسبب إصرارها العجيب على أن أقرأ لها الرواية. صرختْ وقالت: ماذا خطر في بالك هناك؟ ها؟ ماذا حدث في المتحف يا أستاذة؟، بعد سؤالها جاءت آهة حزينة، ثم أكملت: لا لا.. لا يحق لي أن أعرف، ولا يحق لي أيضاً أن ألح عليك لقراءة الرواية؟

ضحكتُ مرة أخرى.. لم أتوقع أن تكسر خاطري:

- هل أحدثتِ صدعاً في توقعات القارىء؟

- .....؟

- هل قلبت الوجه على البطانة؟

- .....؟

- هل انتحلتِ فكرة الراهب؟

- .....؟

- هل حلمت بالنيابة عن التمثال؟

- .....؟

- هل سرقتِ من نفسك؟

كادت أن تبكي.. بل بكت فعلا:

- كيف أسرق من نفسي يا أستاذة؟.. ماذا فعلتُ يا أستاذة؟ كنت أعلم منذ البداية بأني غبية. هل يمكن ان تقرأي الرواية؟

هل يمكن أن أفعل ذلك؟ لا يمكنها بهذه البساطة أن تكسر ما عزمت عليه، والقرار الصارم بان لا أنجر إليها..

-3-

انتظرني لاتبعك

امتهانات المهن هي من أعز الأشياء الى قلبي.. ساحرة.. فتاحة فال.. مغسّلة موتى.. وكل شيء تخيلته كتبت عنه عدة سنوات بين دمياط وماليزيا.. فالمنضدة التي أكتب مصنوعة في دمياط، والكرسي الذي أجلس عليه مستورد من ماليزيا.. ولا شيء بينهما سوى فترة النوم التي اعتبرها صحراء قاحلة لأني لا أحلم، ولا أعوّل عليها إلا من اجل أخذ قسط من الراحة ثم الاستيقاظ مرة أخرى لكي أبدا الكتابة. وعلى الأغلب فإن عقلي الباطن قد تخلى عن الأحلام في النوم لكثرة ما أتخيل وأحلم به أثناء اليقظة.

جارتي الجديدة أشعرتني بأني يجب أن أزاول مهنة أخرى غير تلك المهن، وهي أن أظهر في التلفزيون مراراً وتكراراً، وأن أقوم بحفلات توقيع كثيرة... فكيف سأفعل ذلك، وأنا أكاد أن أعزف للشحاذ بعصا المكنسة.. وأسلم على الجيران بوجه من نشارة الخشب؟، بل ما يدريني إن جاءت تزكّيني، أو جاءت تسعى لمشاغلتي بمقاطعاتها التي جعلت من أسبوع واحد يتحول إلى مهرجان في النثر والشعر ورياضة المراكب الشراعية أيضاً. قلبي لا يطاوعني أن أغلق بابي دونها.. وبعد كل جرس أسمعه أضحك.. لأنه يقّطِع سلسلة افكاري إرباً إرباً، ويجعلني أنهض وأبدا من جديد كما هي الحياة..

أستاذة جلبت لك بعض الخضار الطازجة مع التمر المحشو بالجوز.. فليس هناك أهم من البوتاسيوم والكالسيوم والأوميغا ثري لتحسين كمية الأوكسجين في دماغ الكاتب.

يا ترى ما اسم إله الغضب الذي يحشد الجنود والحشود للذهاب إلى الحرب؟:

- انت غير متزوجة.. صح؟

- نعم. واعيش مع أمي لوحدنا، أما اختاي إيلانا وآنابيل فقد تزوجتا.

كانت بارعة ليس في قلب وترتيب الأشياء فقط، ولكن في قلب انتباهي إليها دائماً:

- أسماؤكم جميلة يا أورشينا.

- والدي كان شيوعياً.

- أين هو الآن؟

سألتها هذا السؤال قبلاً، ولم أنتبه لجوابها:

- لقد توفي في عز شبابه. ألم اقل لك إنه شيوعي؟.

بأبسط الكلمات كان يمكنها أن تلفت انتباهي إليها بقوة، وتجعلني أتراجع عن خطتي للتخلص منها بالعبوس والتولي.. كنت

أنظر في أول صباح لي في هذا البيت فوجدتها تتحدث مع فتى صغير يركن دراجته قرب باب البيت.. من الواضح إنه البستاني وقد أخرجتْ له الفطور والشاي وأعطت له الكثير من التوجيهات حول شتلات ورد جديدة يزرعها. ظهر بعد قليل بستاني آخر جاء من مكان ما في الزقاق، وانضم إلى البستاني الأول وراحا يمزحان مع بعضهما البعض.. شعرتُ بأني مسافرة إلى تلفات الدنيا، وينتابني إحساس يوم جديد في بيت جديد... يوم لا يشبهه يوم آخر.. فأورشينا بحديقتها الأخاذة كانت هي المنظر الذي أطل عليه من شرفة فندق نبيت فيه بعد السفر.. ومن المستحيل تماماً أن يكون هذا السحر نابعاً إلا من هذه الحياة الجديدة التي أعيشها.

كان عبد الوهاب يغني: "علشان الشوك اللي في الورد بحب الورد واتمنى شوكه وتعذيبه، وإن عشق القلب بيهون الجرح، ما دام يمكن يواسيه عطف حبيبه"، بعده مباشرة ظهر الصوت الرخيم للمذيعة التي تعرضت لرصاص الاغتيال عام 2007، وهي المرأة نفسها التي تمكنت من الوصول الى مبنى الإذاعة و التلفزيون بالرغم من القصف الشديد عام 1991، كانت طائرات بوش وصواريخه تصدر أصواتاً غريبة تشبه أصوات إزاحة أريكة من مكانها فوق أرض خالية من السجاد. وبعض المذيعين يبثون البيانات من المواقع البديلة. تذكرت كيف أن الخطر يُصبح لذيذاً وقت الحرب مع عدو

جاء بملابس الغزو ليشن عدوانه علينا. تلك الحرب شابتها اللذة فعلاً بحيث لم يهرب أحد منها، أما الحرب الأهلية بين أبناء البلد الواحد فمخيفة ومرعبة بحيث شلت حركة الجميع أو جعلتهم يهربون..

كانت أمل المدرس قد بدأت كلامها تروي كيف تصدى لها أحد المسلحين قبالة بيتها، مُطلقاً عليها أربع رصاصات.. قالت:

لقد كنت انتظر السائق الذي يوصلني إلى دار الإذاعة في الساعة السابعة والنصف صباحاً، وعندما تأخر السائق، توجست خيفة، فقررت العودة إلى البيت ريثما يأتي السائق، وفي الطريق تعرضت إلى إطلاق نار، ولم أدرِ بعدها ما حدث لي، غير أن الناس الذين كانوا يقفون في الشارع وقتذاك، رووا بأن أحد المسلحين أطلق على رأسي أربع رصاصات، لكنه تعثر أثناء ذلك، وزلت قدمه، فزلت يده، حيث لم يتمكن من إصابة رأسي بدقة، فأصابني في عنقي وفكي الأيسر، وهرب. وأظن بأن عناية الله، وإيماني برعايته وحفظه أبعد عني الموت المحقق.

الوقت ضحى.. البخار المتصاعد من إبريق الشاي يهدئ الروع، ويجعل الدنيا ندية مثل ورقة ورد طرية. وأورشينا كانت تخرج من باب بيتها، وتؤشر بيدها في الفراغ وتتحدث مع شخص لا أراه.. ماذا تفعل؟ هل تحدث أمها عن بعد؟ رأتني واقفة خلف الباب

فجاءت مسرعة، ثم توقفت بإزائي وأجابت على سؤال لم أنطق به.. قالت لي إنها لا تحدث نفسها، وإن ما فعلته هو حيلة من حيل التخفي عن اللصوص تلجأ إليها عند الخروج من البيت فلا يظن أحد ما يراقبها بأنها تعيش وحيدة في المنزل.

- ألم تقولي بأنك تعيشي مع أمك التي تصرف عليك؟

- هذا صحيح يا أستاذة، لكن ست الحبايب ذهبت إلى السماوة وتأخرت هناك.

- رأسي استدار 160 درجة مما تفعلين.

- هههههه.. تقصدين 180 درجة يا أستاذة.

- تعرفيني لا أحب التطرف.

أمالت رأسها أولاً، ثم قلبت وجهها تحبباً، وراحت تحرك رأسها يميناً وشمالاً مثل مكوك الحائك للبحث عن الدرجة الستين بعد المئة . كانت تضحك وهي تحاول أن تدير رأسها مع الإبقاء على كتفها ثابتاً!!!!! دفعت عني الملل هذه الفتاة العجيبة. وكل يوم معها لا يشبه باقي الأيام..

في العصر رنّ الجرس مرة أخرى، فكانت هي واقفة تحمل رزمة من الكتب.... تخيلتها تقف فوق فيل إبرهة الحبشي وغرابا عَكْ يتقدمانها قبل الانقضاض.. دخلتْ وظلتْ تدور حولي وهي تزغرد في أذني (أستاذة أستاذة أستاذة).. قالت لي بأنها يمكنها أن

تنجز لي الكثير من المهام لكي توفر لي الوقت اللازم للكتابة. كانت لحيفة جداً وشاحبة اللون بحيث أشعر بأنها شبح يدور حولي ويريد إضحاكي ترفقاً بي في عزلتي هذه وابتعادي عن عائلتي.. طلبتْ مني أن أكتب لها إهداءً على جميع رواياتي التي كانت معها، وحاولتْ التقاط صورة لي معها وكأننا في حفل توقيع، إذن هي تعرفني جيداً، وعندما قلبتْ صفحات الإهداء فغرت فمها، واستغرقت في الضحك بلا سبب، ثم استدركت قائلة، وكأنها تقرأ أفكاري:

- معذرة يا أستاذة أنا لا أضحك بلا سبب.. ولكنك كتبتِ كل يوم بتاريخ مختلف مع أننا في يوم واحد هو الحادي والعشرون من آذار.. هههه أما السنين فقد اختلفت وتفاوتت، وكأننا نطير فوق بساط الزمان كله.. هههه بعض السنين كتبتِها 2015 هههه، وبعضها 2016، وبعضها 2028.. واو!! كأني أرى نفسي في المستقبل.. تعال تعال أيها المستقبل فأنا عاطلة عن الكلام.. تعال وانظر إلى هذا التيه من الزمان.. أنا أعرف أن أستاذتي لا زالت متعبة من الانتقال إلى هذا البيت الجديد.. وبسبب هذا التعب كنتِ تكتبين اليوم عامي شامي هههه، حظ يانصيب، هههه.. ثم بعد ذلك تكتبين السنة أو الشهر، أنت وحظك أيضاً هههههه.. كم مذهول هو المستقبل... كم سعيدة هي عيوني التي تراقب هذا العبث

مع الزمان، فتجعلني أشعر بأني أقف على شاطيء الجدول وأتحدث إليه، أقول له أيها النهر لا تسر وانتظرني لأتبعك.. ليتني كنت معك.

استغرقت في الضحك وهي تحرك رأسها يميناً وشمالاً كما يفعل أطفال المدارس، ثم راحت تغني أغنيتها الكشفية تلك حتى جعلتني أضحك:

- أيها النهر لا تسر
وانتظرني لأتبعك
أنا اخبرت والدي
أنني ذاهب معك
إنْ احضرتُ مركبي
هو يا نهر من ورق
أدنِ يا نهر إنني
لست أخشى من الغرق
فانتظرني لاتبعك
ظهر النهر هادئاً
ورأى الطفل أوله
فرمى المركب الذي
في يده و قال له
"انتظرني لأتبعك"

فجرى النهر مسرعاً
و مضى ثم لم يعدْ
صرخ الطفل قائلاً
بعدما المركب ابتعد
ليتني ليتني معك

- .....

- فانتظرني لأتبعك

لا زالت تتحدث منذ الساعة العاشرة صباحاً من يوم الإثنين وحتى الساعة الخامسة عصراً من هذا اليوم.. ومع هذا لا يطاوعني لساني أن أرميها بحجارة واحدة. يبدو أني أخذت اغفاءة قصيرة بعد الغداء، وعندما استيقظت وجدت أورشينا أمام الباب، ثم أصبحتْ أمامي تغني وتعيد ترتيب صحن الفاكهة، فتضع التفاحات في الصف الأول السفلي بدلاً من الصف الثاني للهرم الذي لم يكن مقلوباً هذه المرة.... قالت لي أثناء ترتيب الصفوف:

-أنت في خيالي يا أستاذة قبل أن نلتقي، ولأنك استاذتي الأولى، فأنا أعرف كيف تتعاملين مع الحقيقة كما هي، ثم ترتفعين فوقها بحلم يقظة طويل.

- من الواضح أنك مصرة على أن أقرأ روايتك؟

- أرجوك أستاذة أن تفكري بهذه المصادفة العجيبة التي زلزلتني وهزت كياني.. أنهي أغلب فصول الرواية من هنا، وبعد دقائق تسكن في البيت الذي يقابلني تماماً أستاذتي الغالية التي قرأت لها كل كلمة كتبتْها منذ ثمانينيات القرن الماضي ولحد الآن. أقسم بالله بأني قرأت كل رواياتك وحفظت كل حواراتك.. ولكن لماذا لا تظهرين في التلفزيون؟.. لماذا ليس لديك سوى حوار واحد في قناة الانبار يا استاذة؟

- أنا أكره الحوارات والكلام الكثير.

- أوووووه.. يار بي توقعت هذا.. قرأت هذا عنك.. أنت كائن محب للعزلة وتحبين وقت الصباح للكتابة.. يا بوووية. (أمّداني)* شلون مزعجة؟

- .....

- لماذا تضحكين يا أستاذتي الغالية؟ أنا أخاف عندما تضحكين.. وأعتقد بأني أحتاج إلى حلقة نقاشية لكي أفهم لماذا تضحكين.. ياريت تشرفينا في هذه الحلقة هههه. أنا أزعجك أليس كذلك؟ أنا أزعجك؟هههههه.. ولكن.. ماذا أقول.. يا ناس يا عالم ماذا أقول.. والله العظيم إن الأمر يفوق الخيال.. أنْ أراك وأسمعك تتحدثين.. أقسم بأني لم استطع النوم جيداً منذ أسبوعين.. آخ يا بوووية.. أشعر بأن هذا ترتيب غريب من القدر.. أشعر بأن ظهورك في حياتي بهذا الفجأة هو لكي لا أجعلك تتعبين في شيء

بعد ذلك. مادام أولادك خارج العراق اعتبريني ابنتك أو أختك الصغيرة. بل أنا تلميذتك التي تأثرت بك، وأعرف كم تحبين استعمال مفردات حية تتحرك، وستقرأين الرواية وكأنك تقرأين لنفسك، أو تفتحين أبواب بيتك، ثم تخرجين منه إلى هذا الزقاق.

- .....

- هل تسمحين لي بسؤال؟

- أنا أخاف عندما تضحكين.. ومع هذا سأسأل سؤالي؟

- ما معنى أن أسرق من نفسي يا أستاذة؟

لم اسمعها تناديني بغير هذه الكنية لحد الآن، ولم تتلفظ اسمي.. إنها تركض حولي منذ أيام وتلهث من الركض، فقلت لها:

- يجب أن لا أشرح لك أي شيء إلا إذا أنستُ عندك رواية حقيقية.

-4-

بيت المخابيل

ما أن يأتي المغرب حتى يبدأ الصراخ.. ويرتفع العويل بشكل مخيف يتناقض مع سكون الزقاق في أوقات النهار.. كثافة السكان فيه تبدو معدومة.. والصمت ينتشر بين أناس أصبحوا يخافون بعضهم بعضاً، ويشعرون بأنهم لا يمتون لبعضهم بصلة سوى كونهم يعيشون في ظلام متقطع حسبما يسمح به جدول كهربائي يحمل اسم الوطنية.. عشرون يوماً مرت جعلتني فيها أورشينا أشعر بنفسي قديمة في هذا الزقاق.. روت لي كل شيء عن سكانه الذين غاب بعضهم وحضر بعضهم الآخر.. وأنشدت لي أنشودتها الكشفية عن النهر بحيث أعادتني إلى زمن مدرستي الخنساء التي كانت تقع فعلاً على ضفة نهر دجلة.. زمنها ارتبط عندي بخرير الماء، وأزيز أبواب خشبية قديمة تتداخل مع أبواب أخرى رأيتها في حياتي.. اختفى كل ذلك عدة سنوات من انشغالي بمرحلة الحمار من حياة الإنس.. وهي المرحلة التي يحملون فيها الأعباء والأنواء فوق ظهورهم، ثم عندما ينقض هذا الحمل، يعودون حملاناً من جديد يلهون في الحقول والمراعي.. والآن جعلني نشيد أورشينا الذي خاطبت فيه النهر.. وكلامها عن هذا الزقاق الذي يحمل جميع أبنائه اسم محمد، أخرج

إلى الباب الثقيلة لكي أفتحها وألقي نظرة باتجاه الدنيا التي كتبتْ عنها أورشينا روايتها.

فجأة ارتفعت أصوات الصراخ والعويل، وخرجت فتاة ثلاثينية منكوشة الشعر تركض من بيت المخابيل.. كان صراخها يمزج بين الضحك والبكاء.. وكأنها تهرب من خطر يركض وراءها.. وفي الوقت نفسه هي سعيدة بوجود هذا الخطر الذي يثير الضحك لدى الأطفال في لعبة الركيضان. أخوها الذي يصرخ أيضاً لم أره.. فقط رأيت أمها تقف في الباب وتناديها لكي تعود.. لكنها لم ترجع إلى أمها.. إنها تتوجه نحو أورشينا وتفتح ذراعيها وفي يدها الموبايل.. رمت هاتفها على الأرض حتى تحطمت أجزاؤه، ثم قالت لها: أهلاً بخولة أم عيون الجقلة واحتضنتها.

ماذا يحدث؟

قصة هذا البيت أعادتها لي أورشينا أكثر من مرة وقالت لي ستسمعين صراخ هذه الفتاة دائماً وقت الغروب.. هذه علياء وأخوها الذي لا نعرف اسمه على وجه الدقة.. فنحن لا نراهم في النهار ولا نشعر بوجودهم، وكأنهم موتى أو أشباح.. وهناك على واجهة البيت لوح كبير من الرخام مزخرف بنقشة زهرة الأقحوان وقد رسم عليه أبوهم الخطاط مربعات هندسية كتب داخلها اسم

الملك الآشوري سرجون وألقابه واعماله وتاريخ تشييده لهذا القصر..

- هل الأب مجنون أيضاً؟

- أبوهم عاش طويلاً حتى احدودب ظهره، وعندما مات كانت وصيته أن يدفن في تابوت مصنوع من جريد النخيل.. هه.. لم يتبق بعد أن قضى نحبه سوى الأم والأبن والأبنة. بيتهم يقع في الطرف الأيسر للزقاق. طالما الضوء موجود في المكان فهم هادئون لا نسمع لهم حساً ولا نفساً، أما عندما تغيب الشمس فيبدؤون في العويل والصراخ. وبعد أن استفحل الأمر طلب الشيخ محمد أن يرقّيهم ويقرأ الآيات فوق رؤوسهم.. ولكنهم رفضوا. وظلوا يعيشون وكأنهم وحيدون في هذا العراء.

- ومن هو الشيخ محمد؟

- بيته يقع في الطرف الآخر من الزقاق. بعد بيت محمد الكردي بالضبط.

رفعت أورشينا عينيها إلى النجوم التي بدأت تظهر في الأعلى، إذ كنا في الحديقة عندما سألتها:

- هل هم على هذه الحال دائماً؟

- إذا كان الله قد وزع مهامه على الناس في هذا العالم، فهم الوحيدون الذين تبقوا بدون مهمة رسمية كباقي المهام.. يعتقد

الناس أنهم قد فقدوا عقولهم، وفي الحقيقة أظن أنهم قد وجدوه، ألا تجدين الحق معهم تماماً..

- كيف ذلك؟

- لا يمكن لعاقل أن يحتمل الحياة وقت الغروب يا أستاذة، أو أن يدفع عنه هذا الحزن الجبار الذي يتملكنا عندما يجن الليل وتتناهى إلى أسماعنا موسيقى بعيدة لحفلة عرس.. سنفكر بأن هذه الموسيقى هي من أجل إنجاب أولادٍ نعلم بأنهم سيُدفنون ذات يوم. ألا يتطلب الاستمرار في هكذا حياة أن يتحول العقل إلى كومة من الضياع والجنون؟

- أهذا لم تتزوجي؟

- أحتل الرجل مكانا جميلاً في حياتي.. ولولا أنه لم يكن وسيماً كما استحق أنا لتزوجت من زمن طويل.

- وكيف يكون وسيماً كما تستحق أورشينا؟

- وسامة الرجل لا تُعرف من هندامه أو طعامه أو منامه. وسامته أعرفها من قلة كلامه.... وأنا بانتظار أن يُغمى علي في مكان عام ذات يوم، فيأتي هذا الرجل الوسيم ويحملني بين ذراعيه دون أن ينبس ببنت شفة.

- ألن يقول كلمة واحدة؟

- ماء الكولونيا على وجهه هو الذي سيتحدث.

- واو.. مطالبك صعبة يا أورشينا؟

- هههههههه أليس كذلك يا أستاذة.

في الليل داهمتني رائحة الزقاق.. ولم يعد للصراخ وجود.. إنه يُسمع وقت الغروب فقط كما قالت أورشينا.. مثل دجاجة مريضة يصبح هذا الزقاق في الليل البهيم.. هناك حركة مسموعة للناس في النهار.. وفي الليل يفقد المكان ذاكرته، ويصبح صامتاً تقريباً من أصوات كائنات كثيرة ستقض مضجعي لو سمعتها... حمدا لله أني انتقلت إلى هذا البيت الجديد، وتركت كل تلك الأحاديث خلف ظهري، ولو كنت طبيبة نفسية لما نصحت أحداً بزيارة مكان قديم ولا مدرسة ولا بيت.. فمثل هذه الزيارات تحطم القلب و تدمي العين والروح.. فالذاكرة تهب الطلاقة والرحابة للأماكن التي نحب.. وإذا ماغادرناها لفترة طويلة، ثم عدنا إليها سنراها تبدو أضيق وأصغر مما كانت عليه.. بمعنى إن الأبعاد لم تتغير بسبب مرور الزمن، ولكنها تغيرت بسبب سوء تقدير الذاكرة التي ترتبط بمكان أليف تحبه وترسمه كما الجنة، ثم عندما نعود إليه فعلاً نجده يجافي تلك الصورة، بل سيبدو، نسبةً إلى الامكنة الجديدة التي عشنا فيها، بمنتهى الخراب والبشاعة.

ها أنا هنا في أرض بكر لم يذهب عنها حبرها.. في مكان جديد لا أرجوحة فيه قد يكون وجودها أكثر إيلاماً من تأثير لدغة العقرب.. أرجوحة تحركت إلى أعلى وأسفل وانكسرت يدها، ثم

ربطها أبي بالأشرطة البلاستيكية والكلابات، فبقيت هناك تحت أشجار النارنج التي نضجت ثمراتها وتركتْ رائحتها في دشداشة أمي.. و معها عطور القداح التي دوخت حتى اللص عندما جاء يسرق الدراجات من الحديقة، فاستطاعت أم المكانيس أن تهجم عليه وتغلبه بسلاحها الأبيض.. رأسي كبير ويختزن ما هو أبعد من ذلك.. يختزن ما خلطتْ جدتي من وصفاتها الخاصة بالتهاب العيون واحمرار الأطراف، إذ قامت بحلب ثدي امي فوق عيوني لكي تطيب من احتقانها، ومسحت جلدي بالطين خاوة لكي تبرد التهاباته. لماذا أنا هنا إذن.. وبعد أعوام طويلة من البقاء خلف قضبان الكتابة، لا أنجح في إقناع نفسي بأن وجودي في أي مقام من مقامات بغداد سيجعل ذاكرتي تحاصرني، و تلاحقني بهذه الطريقة نفسها، وحتى بدون أن أزور مكاناً قديماً فإن هذا المكان سيتحرك ويأتي من تلقاء نفسه.

الباب بيني وبين أورشينا لم تعد مواربة، وشعرت بأني يجب أن أتعرف عليها بشكل أفضل. وأكتشف أسرار هذه الزوبعة التي تدور حولي منذ عشرين يوماً.. كانت تتأخر في مجيئها الصباحي، ولا تعرف بأني أراها تتلكأ قرب الباب أو تقوم بفتحه أكثر من مرة لكي تلمح إشارة معينة تشجعها على المجيء.. أسرار أورشينا مكشوفة في عينيها قبل فمها.. وكنت نويت أن أخصص ساعة واحدة أستمع

إليها، قبل أن أبدأ بقراءة روايتها. وبما أنها ستتحدث ثلاث ساعات في ساعة واحدة، فثلث ساعة فقط قد تكفي..... عندما علمتْ بنيتي على عقد ذلك اللقاء جاءت بسرعة الصاروخ، وصرفتْ البستاني الذي اعترض طريقها عندما فتحت الباب.. كنت أراه أحياناً يستعمل الموبايل بدلاً من طرق الباب.. يطرقه ولا أحد يرد.. فيخرج الموبايل من جيبه ويتصل بها.. وأحياناً تنطلق رنته عالياً عندما يتصل به أحد ما، فأسمع أغنية رياض أحمد الشهيرة (مجرد كلام).

- حسنا يا أورشينا ما حكايتك مع الكتابة؟

- أنا درست علم النفس في الجامة المستنصرية، وتخرجت قبل ثلاثة أعوام. ولا أعرف ما هو المستقبل.. ولا أنتظر شيئاً.. لم أتزوج لحد الآن.. ولا أفعل أي شيء سوى الكتابة.

- لماذا تكتبين؟

- لا أدري.

- يجب أن يكون هناك سبب.

- ساعات يفيض عندي إحساس غريب من الحرية.. حرية بدون معنى.. ليست للاكتشاف ولا لفعل شيء.. فقط للحديث إلى نفسي، فأتحول إلى عصفورة صغيرة تظل تزقزق بالوتيرة نفسها، أو

حمامة بدينة تهدل بين سعف النخيل.. وأول مرة تحرّك فيها القلم كانت بأمر من أوامر الطبيعة هذه.

- ألا توجد رسالة؟

- (أمّداني)* إذا عندي رسالة.

- هههههه.. أنت مضحكة ومليئة بالمفاجآت.

- حقاً أستاذة.. حقاً أستاذة... والله أنا يا أستاذة أصبحت أشعر بالفرح عندما تضحكين.. وبأني لم أعد أزعجك. صحيح؟ انا لا أزعجك؟. صحيح؟؟ أنا أتذكر قصتك الأولى قبل ثلاثين عاماً.. شكد حلوة كانت... أمّداني إذا أعرف أن أكتب مثلها.. يا بوووووية شكد حلوة.. أنت قلت أنك تنظرين إلى الأشياء فينطبع في عينيك شيء من الغواش شبيه بالأثر الذي يبقى بأصابعنا بعد الأمساك بأجنحة فراشة.

لَفّني الصمت.. ونظرت إلى تلك الهوام التي تتكون حولها ثم تطير.. أستطيع أن اقول إنها درويشة.. ترتدي ملابس بسيطة ولا تضع أي مكياج على وجهها. وعند الكلام عن روايتها يذهب كل تلف المظهر وتتحول عيناها إلى غمازات تشبه رصعات خديها. تصبح لغتها بريئة جداً مثلما هي غافلة عن أي إدراك أو توقع. فجأة راحت تنظر لي بغرابة.. كانت عينها اليمنى جامدة تقريباً.. ثم نهضت من مكانها ومدت يديها إلى رأسي.. هي صيحة واحدة، ثم

فوجئتُ بانها تتقدم نحوي.. فشعرت بانتهاء أمري. لم أستطع أن أتحرك من مكاني، بل جثمت لا أدري هل أختبئ، أو كيف أنقذ نفسي:

- ماذا تفعلين؟

- هناك عنكبوت على شعرك يا أستاذة..

هلعتُ وقفزتُ من مكاني:

- لا تقلقي أستاذة.. لقد ذهب يا أستاذة.... تُذكّرينني يا أستاذة بالطريقة التي يهلع بها الناس من علياء.

- وأنت، ألا تخافين منها؟

قفزتُ مرة اخرى:

- أين هو؟ لا أجده.

- سقط واختفى بين عشب الحديقة..

- إني لأتساءل هل المسافة كانت بعيدة بيني وبينها في البيت القديم؟ أم أن العناكب كثيرة في هذا البيت بحيث تنسج شبكاتها بعد لحظات قليلة من إزالتها؟

- أرجو أن لا يجعلك هذا تغيرين رأيك فتقتليها بالسم.

- وماذا يعني هذا؟

- يعني أنها قد تعمل بهذا النشاط لأنها سعيدة.

ضحكت أورشينا أولاً، ثم ضحكتُ أنا، فقالت أورشينا:

- أنا عرفت الفكرة هذه يا أستاذة قبل أن تقوليها.. هههههه عرفت ذلك من قصة النملة.

- ذكّريني يا أورشينا ماذا قلتُ عن النملة؟

أصبحت تهز رأسها بمرح، وتتحدث بإيقاع دمية منصوبة:

- قلتِ إنها سعيدة، ولكنها لا تعرف أنها سعيدة. وتعيش، ولا تعرف أنها تعيش.

- فهل هي سعيدة وهل هي تعيش؟ هههه..

- سؤال يصيب المرء بالدوار .. هههههه.. أليس كذلك يا أستاذة؟

- نعم هههه

- .....

- ماذا تفعلين؟ توقفي.. لماذا نهضتِ من مكانك؟

- العنكبوت يا أستاذة.. إنه يسير على يدك مرة أخرى.

أزحته عن يدي، فأمالت أورشينا رأسها، صمتت قليلاً. لإنها تتأملني، ثم ضحكت ضحكة ممزوجة ببعض التربص :

- قد يكون شاور عقله ثم عاد.

- أعتقد أني يجب أن أغيّر فكرتي عن الحشرات.. إنها سعيدة أكثر من اللازم في هذا البيت.

- الهيلوكبترات العسكرية لا تزال تطوف السماء، والنملة قد أصبحت فوق الجدار الشاهق تواصل سيرها إلى أعلى حتى التقت نملةً أخرى فتقابلتا وجهاً لوجه وتحدثتا برهةً ثم افترقتا على نحو جُسيم.. هي المرة الأولى التي يعرف فيها محمود أن النمل يتحدث فيما بينه ويتشاور بحديث لا يدركه أحد...

- اقتباس آخر؟؟؟

- هههههه. نعم أستاذة فأنا أحب رواية الأعمى محمود الذي أبصر.. لأن كل شيء موجود فيها من النملة وإمرأة العزيز و حتى إنكة، فلماذا ذكرت هذا الرجل في الرواية؟ ومن هو بالضبط؟

- إنه حارس مرمى كرة قدم لفريق ألماني وجدته الشرطة منتحراً على سكة القطار حزناً على وفاة ابنته ذات العامين التي ماتت بمرض القلب.. لقد تصادفت هذه الحادثة مع وصول محمود بطل الحكاية إلى أمريكا، وأراد محمود من هذه الحكاية أن يضيفه إلى قائمة الذين يدعو لهم بالرحمة في سره وجهره بالرغم من اختلاف ديانته، لأن الموت من وجهة نظره يساوي في فظاعته وجبروته بين الجميع، ونظراً لأننا ارتفعنا قليلاً عن مستوى الأرض، لنبدأ مع أي معبد يُستخدم كمكان للصلاة أو التأمل.. إذا كنا نتحدث عن إنشاء أشكال هندسية للبناية، فنحن بحاجة إلى دقة متناهية، ومقاييس في

غاية الصرامة، ولكن هذا لا يعني أن الشكل سيكون له أي أهمية كبيرة عند الصلاة.. أما في صلتنا مع الكلمات فالجمال هو الغاية، والشكل أكبر بكثير من أن يكون أداة جامدة لنقل لمضمون.

- هل تقصدين أن الشكل مهم جداً يا أستاذة.. إني أراه يتكون كما الرغوة من تلقاء نفسه عندما أكتب، ولا يكون لي أي دخل فيه.. فكيف يكون أهم من الفكرة؟

- الشكل هو الصورة.. والصورة عند تصوّرها تكون فكرة خاماً لا وجود لها في الأبجديات، ثم تأتي الكتابة من أجل تصويرها على شكل كلمات، وهذا سيتطلب أن نكون ماهرين في استخدام عدة التصوير وتراكيبها من الألفاظ والعبارات والايقاعات الموسيقية. أنا اتحدث طبعاً عن الروائي الذي سيطالبه الناس بالصورة، وليس المؤرخ أو الموثق أو المؤرشف الذي سيطالبه الناس بالصدق.

- ولكن الشكل يتكون كيفما اتفق يا أستاذة، ولا يوافق سوى مضموناً معيناً. فهل يتغير مع مضمون آخر .

- لا يكون الشكل نابعاً إلا من الحاجة إليه، وقد حاجج هيغل في "فلسفة الفنون الجميلة" هذه المسألة وقال بأن "كل مضمون محدد يقرر شكلاً ملائماً له"،

- هل سيختار المضمون المختلف شكلاً مختلفاً في كل مرة؟

- هذه جدلية أخرى.. للمضمون أسبقية على الشكل، فهل سيتغير الشكل إن تغير المضمون؟. وتيري ايغلتون استخلص من هذا السؤال ما يلي: "رغم أن الاسبقية هى لجانب المضمون، ولكن الشكل يؤثر فى المضمون ولا يبقى سلبياً أبداً".

- لقد دخت يا أستاذة.

- إذن فالرواية كما يقول صلاح فضل مثل «جوف الفرا» يتسع لكل شيء غير أنه يحتاج إلى جلد بطن متماسك يحتويه.

- وما هو جوف الفرا؟

- المثل قديم، وأصله أن قوماً خرجوا للصيد، فصاد أحدهم ظبياً، وآخر أرنباً، وأخر فرا، وهو الحمار الوحشى، فقال لأصحابه: "كل الصيد في جوف الفرا" أي جميع ما صدتموه يسيرٌ جداً في جنب ما صدته.

- أستاذة أنا (أمدّاني)* إذا أعرف شيئاً من هذه الأشياء. أنا أسمع عنها فقط. بائع البالونات مثلاً؟ هذا الذي نقول له أريد بالونة يا عمو؟ ألا تتوهج الخدود وتتحرك المشاعر ويشتعل الحماس عندما نراه؟

- نعم يحدث ذلك.

- هكذا كتبت روايتي يا أستاذة.. ولا أدري كيف سيكون شكلها موحداً مع روايات أخرى قد أكتبها، وقد تكون عن دبابات وراجمات وجنود يتوجهون لجبهات لقتال؟

- الشكل إذا كان غنائياً، فلن يمكنه التعبير عن مضمون تاريخي معقد. وفي هذه الحالة قد يكون الشكل سجناً يحبسك داخل مضمون واحد.. فيعكس صورة مكررة عن الحياة التي تكتبين عنها.

أبواب البيت كانت ثقيلة.. بحيث أتأخر في فتحها.. وقبل أن أفتحها لاحظتْ أورشينا منظر الحديقة المتداعي فقالت لي:

- أستاذة أستاذة هل تريدين للفلاح أن يأتي لتشذيب الحديقة؟

- ولماذا الحديقة على هذه الدرجة من الإهمال؟

- كان هناك حدائقيان يأتيان من مناطق بعيدة، ويعملان في تشذيب وفلاحة الحدائق لهذا الزقاق. أحدهما سفيان والآخر عباس. ولديهما أسماء أخرى مثل طنبور وهرهور وأبو قنبورة.. هههههه... كانا يتنقلان كل يوم بين بيوتنا مثل عصافير وطيور وقطط الزقاق.....

- ما بك يا أورشينا لماذا سكتِ؟

انقلبت سحنتها، وانتابها الوجوم:

- يجب أن نخرج من هنا.

- لماذا؟

- لكي أجعلك ترين آثار الطلقات التي رماها المجنون محمد أبو فرات في الهواء.. حمداً لله أنهما نجيا وضحكا من جنونه. كانا يضحكان ويمزحان طوال الوقت، غير أنهما لم يعودا يأتيان إلى هنا منذ فترة طويلة.. ومنهما إستوحيت الكثير من أحداث الرواية، وسيكونان موجودين فيها للتعبير عن الصورة الكاملة للحياة التي عاشاها مع أهل الزقاق جميعهم، و كيف كانت تحبهم بشكل خاص ماريا زوجة عبد الملك صاحب هذا البيت قبل أن يصبح ملكك.

- وماذا عن أورشينا؟ هل ستظهر في هذه الرواية؟.

- أنا الراوي العليم الذي يجب ان لا يثرثر كثيراً أثناء الكتابة. اعتاد أن يسمع نفسه وقلبه أثناء الانحناء لتقليب التربة، وتنظيفها من الأوراق اليابسة التي تتساقط... مثلما يفعل تماماً سفيان وعباس اللذين لا تصل أفكارهما للناس عندما ينظرون إليهما.. ولكن الراوي العليم يستطيع أن يجلس محنيَّ الظهر، وأن يكون واسع المعرفة عند الكتابة عنهم.

بدت سعيدة جداً بهذا المنصب الذي منحته لنفسها.. وشرحَتْه بأفضل مما توقعت، فقلت لها:

- ولكن أحقاً كل من في هذا الزقاق يحملون اسم محمد.

عندما أجابتني أورشينا وقالت نعم، شعرت بلسعة اخرى من لسعات الهوام التي تتحرك بيني وبينها، كانت تحاول فتح الباب الثقيلة عندما قلت لها:

- أورشينا هات روايتك لكي أقرأها.

إخوة محمد

-1-

أولاد الحدائق

أنا ماريا.. أسكن البيت الذي يقابل بيت أورشينا وأمها أيسر.. أسماؤنا التي نُعرف بها هي غير الاسماء التي يعرفنا بها أولاد الحدائق.. فهم يجدوننا أمامهم تحت السماء، ولا يروننا إلا وقوفاً لبعض الوقت بلا حدود أو سقوف ولا جدران، ومع هذا، تكفيهم سحنات وجوهنا فقط لكي تعبّر عن اختلاف صفاتنا، أو فرز المحبوبين عن المزعجين منا بدون عناء، أو سبب وجيه مما نعرف من أسباب، فنحن عجين الأرض الذي يقلبونه بأصابعهم كل يوم، ويتعرفون على طبائعه بالسليقة، والغراب طفل مثلهم، بإمكانه التعرف بالفطرة على وجوه البشر.... بل يمكنه محو التشابه بينهم، وتصنيفهم إلى بشر طيبين، و بشر أشرار. مما يعني أن الغراب قد يتذكرنا أحياناً، ويفرق بين وجوه الصور ووجوهنا.

لا يكف زوجي عبد الملك عن الضحك كلما وجدني أبحث بين الناس عن أي شيء متاح لربط الحبل بين جزأين، ولديه قلم أحمر عريض يؤشر به أخطائي وأخطاء غيري، ولا يستثني شيئاً مما أجده أثناء بحثي إذا كان ذلك الشيء غير مؤات لما في رأسه من التكلف والترفع.. فاللورد عبد الملك يغسل يديه بعد كل مرة يلمس فيها النقود، ولا يمد يده أصلاً لمصافحة أية يد سقيمة عقيمة لشخص

غريب يعمل ويعيش في الأماكن الفقيرة، إنه حي يُرزق. نعم.. ولكن أين؟ في أماكن الأرض التي يعثر فيها على اللوردات من أمثاله، أو يسكنها بعض الأشخاص المغرورين بالفطرة، ولهذا امتلأ دفتري بعلامات الضرب الحمراء، وأصبح رسوبي يتكرر في الامتحان، فهذا الرسوب يتكبده من له قلب مفتون يذرف الدموع ويشعر بالألم، ومن يرى أن للجسم البشري قدرة على ترك آثار طوال الوقت، وهذه الآثار هي التي يُستدل بها على الجناة، وتُحل من خلالها أغلب قضايا الطب العدلي.

وقفت سيارة قديمة الصنع يسوقها شاب أشهب الشعر والبشرة..نظرت إليه فوجدتني أعرفه..أكيد أنه معروف، وقد غيّر شكله بسبب الظروف.

- مرحباً؟
- من أنت؟
- أنا عبد الفتاح؟
- هل هذا اسمك الجديد يا محمد؟
- نعم إنه اسمي الجديد.

يشبه الدكتور عبدُ الفتاح عبدَ الوراث عسر قليلاً.. وهو مستمر بتغيير شكله واسمه وسيارته مجاراة لمدير المشرحة الذي أصبح يعتمد السرية في تداول القضايا، وتشفير التسلم والتسليم

بالنسبة للجثث، وحتى توقيعه مع تواقيع باقي أطباء التشريح أصبحت ضبابية حماية للعاملين في المشرحة. صباح ثم صلاح ثم عبد الفتاح، وكان قبل العام 2003 يخاطبه باقي الأطباء باسمه الصريح وهو محمد عبد الكريم.

في الظروف الصعبة يحدث شيء غريب آخر، وهو أن لوحات الأسماء تختفي من الأبواب ومعها أصوات الأجراس، ما عدا لوحة سرجون الآشوري المعلقة على بيت المخابيل.. وصراخهم بعد الغروب.. ولهذا استغربت أني سمعت صوت الجرس عندما كنت أشد وجهي بخلطة جارتي أم أدهم التي تشبه خريطة بيتها خريطة بيتي.. لم أكن متأكدة من الصوت بسبب ضجة الماء.. أغلقت الماء، وبقيت ساكنة مع خليط من قطرات الليمون والخميرة المدافة بالعسل.. أحسست ببرودة خفيفة بالرغم من كوننا في شهر أيلول.. لففت الخاولي على رأسي. ثم نسيت لماذا أغلقت ماء الحنفية إلى أن قرع الجرس مرة أخرى، فكانت جارتي ام أدهم، التي تشبه خريطة وجهها خريطة وجهي، واقفة بالباب تحدث نفسها..

هههه.. سنوات العمر ألبستنا زيها العتيق المهجور، ولا يمكن أن يجددها أي خليط لشد الوجه ومسح التجاعيد، وإذا نسينا أو أخطأنا، فلن تغير عجينة الخميرة شيئاً مما نحن عليه من خطوط متداخلة رسمتها جميع الأطراف منذ أن لوحت لنا الدنيا بأيديها،

وحتى صدمتنا ببائع السميط الذي يمد يده إلى أجسام البنات مع المكاوية والبادم. كل ما في الأمر أننا عندما وُلدنا رأينا أجدادنا كباراً، فاعتادت عيوننا وعقولنا عليهم، أما وجوهنا فعرفناها فتية في الصغر والشباب، لذلك نصاب بالهلع عندما ننظر في المرآة فنجد الهرم قد أصابها حتى ونحن على اعتاب الثلاثينيات أو على أعتاب الأربعينيات لا غير. لا شيء يمحونا أو يمحو ما تقدم من أيام، والصفات أيضاً لا يمكن لها أن تتغير بملعقة من الخميرة والعسل، لأنه في النهاية هناك مَن يُحبّني فيغدق علي أجمل الصفات، وهناك مَن يكرهُني فينعتني بأبشع الصفات..... أما أنا فلا يهمني بالضبط من أنا، أو كيف أكون بعيونهم.. لا أفكر بذلك مطلقاً.

أعتقد أن هذا التغاضي ليس من باب الغفلة أو الغرور، وإنما هو ديدن المستغرقين في الحياة، وليس ديدن الذين ينكبون على هامشها البعيد، ممن يقدمون خدماتهم بأجر يومي زهيد، ويربطون تعاريف الناس بممتلكاتهم أو عاهاتاهم او غير ذلك، فيطلقون عليهم أسماءً قاسية غير أسمائهم الحقيقية.. أليس هذا ما حدث للعتوي وبابا غنوج وبيت المخابيل، وللحوت والعنكبوت؟ فماذا كان اسمي يا ترى وفقاً لديدنهم؟ صاحبة الشعر الأبيض.. أم ذات الرداء الأسود.. أم المرأة التي لا تُشاهد في الشارع إلا وهي تسبح في عرقها مثل السمكة.. قد عرفت بوجود مثل هذه الاسماء الخفية من

ضحكات خافتة يطلقها عباس مع صديقه سفيان كلما رآني أقود سيارتي وأنا أحترق بالحر، أمشي فوق الأرض السوداء المغطاة بالأوساخ والحفر، وكل هذا القدر من الطسات والعثرات لا يثير ضحكاتهم بقدر انكشاف شعري الابيض الذي وثب على رأسي قبل أن أتجاوز الخمسين من العمر. أحياناً يرافقني سفيان على دراجته حتى يصل رأس الشارع، حيث يلتقي أقرانه البستانيين، ويسأل أحدهم الآخر أحد سؤالين لا يتغيران:

- وين رايح؟

- منين جاي؟

الخريف لا يستطيع الكلام ولا النطق بفم من تراب.. فقط يبتسم ليكشف عن سحب بيضاء متفرقة تنتشر في الجو.. فيتمضحك الفلاحون الصغار فيما بينهم دون أن يعرفوا أن الخريف هو السبب في حالة السعادة التي يشعرون بها.. لا زالوا في عمر الفتوة.. مغرورون بالدنيا.. لا قوانين لديهم سوى قانون السعادة الأوحد، وما تصاحبه من ملذات صغيرة ترتبط بمشاغل الحياة اليومية، بحيث تؤدي بعض أوقات الفرح القليلة التي يحصلون عليها في حياتهم، إلى أن تكون الحياة كلها أكثر رغداً وسعادة.. وفي حقيقة الأمر، هم كانوا يواصلون تحقيق هذه الأهداف اليومية الصغيرة بحيث يخرجون

من غبشة الفجر، ولا يتكاسلون عن القيام بالكثير من هذا القليل، وبخلاف ذلك لا يشعرون بالسعادة والرضا.

في مثل أعمارهم كنت أجد من بلغ الخمسين من العمر مسناً قد شبع من العمر والدنيا، وأجده مختلفاً عنا، وقد أشفق عليه، لأن كل الأشياء الرائعة أصبحت خلفه، بل أراه قد استبدل نفسه بدنيا جديدة تمد يديها لصغار السن من أولاده، وحتى أولئك الأولاد الصغار عليهم أن يحتفلوا بها في النهار، ويبكون في الليل، مثلما تفعل علياء، لأنهم لن يكونوا موجودين فيها طوال الدهر، وعندما يحسبون ما سيتبقى من أعمارهم بالأرقام، يجدون أنْ لا شيء هناك بعد الاربعين، فقط ظلام مديد ودامس يشبه يوم القيامة.. معهم حق إن شعروا بذلك، فالأربعون هو العمر الذي سمعت فيه لأول مرة من يناديني خالة فالتفتُ مستغربة للنداء الجديد، ونظرت طويلاً لمرآة السيارة، ولا زلت أذكر المكان وذاك الزمان.

الغيم يمشي.. دراجاتهم تمشي.. لحاهم تمشي، يلتفت كل واحد منهم للآخر أثناء مرور فتاة جميلة.. ويتوقفون تماماً عن الكلام، فهذا هو الأمر الأكثر إثارة للانتباه من كل أمر آخر بالنسبة لهم، حتى عندما كانوا أطفالاً نحيفين بداية قدومهم إلى الزقاق، فإن رؤية الفتيات تجعل الصمت الرهيب يحل مع الابتسامات، ويصبح هناك لكل واحد منهم طير واقف فوق رأسه. طير مضرب عن

الكلام.. ولا تكون الفتاة أقل منهم ارتباكاً، حتى إذا ابتعدوا عنها، أو ابتعدت هي عنهم، طارت الطيور من على الرؤوس، وراحوا يغنون ضاحكين غزلاً بأي شيء من حولهم.. أو يتغزلون بالباذنجان الذي تحول إلى عدة أكلات واطباق مختلفة سدت أي نقص ممكن في طعامهم، بل انقذتهم من الهلاك جوعاً:

أسود سواد الليل والزلف أخضر
جسمك جلد روغان والريحه عنبر
بالدهن من غطيت نسفته كله
سعر الدهن يا ناس ربالي علّه
يروح السمك والبيض واللحم فدوه
لعينك يابو المرقات يا أحلى غدوه

الحزن عنهم بعيد .. بل هو غير موجود مثل غابة.. وكيف يعرف ساكن البوادي ما هي الغابة؟، أو كيف له أن يتخيل وجودها إذا كان قد سعى في طريق التراب حسب، والدراجة تمشي فوقه تحت شمس تبزغ للتو... وكل شيء يستيقظ ثم يجبو الهوينى في هواء الخريف العليل.. ليس الفلاحون الصغار ودراجتهم حسب.. ولكن محمد الصباغ أيضاً وجماعته من الصباغين الشبان الذيت يحملون الدلاء والفرش والعصي الطويلة على أكتافهم.. يمرون كل يوم وهم

في طريقهم إلى الدور التي يصبغونها من الفجر وحتى الغروب.. يتضاحكون بالرغم من أنهم قد خرجوا بدون فطور.. هذا ما أقدره أنا بسبب أوقات خروجهم المبكرة للغاية.. تواريخ ميلادهم متقاربة.. وهي مساوية لعمر ابني يوسف كما أخمن أيضاً... ولكن لا أحد من أولئك الصباغين قد أكمل دراسته.. ويعبرون بيت الشيخ محمد على عجل لئلا يعنفهم على ارتداء الشورتات القصيرة التي تظهر عورات الرجال.. ولديهم أسماء أخرى ينادونهم بها أولاد الحدائق فيما بينهم.

-2-

الصباح الباكر

دق جرس الموبايل في السادسة فجراً.. نهضت ماريا مفزوعةً من نومها، وجدتْ الظلام خفيفاً خارج النافذة.. والصمت التام داخل المنزل.. كادت أن تسقط أرضاً، وهي تركض خارج الغرفة باتجاه الهول الذي كان ضوء النيون لا زال مشتعلاً فيه.. قبل أن تفتح الموبايل، انتبهت إلى اسم المتصل ولعنته في سرها، ثم قالت:

- شلون وياك سفيان؟ كم مرة أقولك لا تجي من الفجر..

سفيان يتأتئ قليلا في الكلام.. فاستغربت ماريا هذه التأتاة التي طرأت عليه:

- خا خا خالتي.. مو مو مو الدنيا حارة وقلت أجي من وكت علممود أقلّم الزرع.

- وأنا شنو ذنبي آكل هبطة من الصبح.. والله راح تخبلني.

- ووووينها خالتي؟؟؟؟؟؟

استغربتْ مرة أخرى تأتأته في الكلام:

- سفيان هاي شبيك؟ ليش تمتمت؟

- خا خا خالتي مو لساني متروس نمل. ظليت آآآآآعلس خبزة طول الطريق بعدين شفتها متروسة نمل.

- صدك تحكي سفيان؟... روح اغسله زين.. هسه أطلع افتح لك الباب.

خرجتُ مسرعة للباب قبل أن أغسل وجهي، فلم أجده واقفاً في الباب.. توقعت ذلك.. إنه يتصل بي قبل أن يصل البيت بمسافة، لكي يمهد الطريق لقدومه المبكر جداً قبل أن يصل الباب.. رجعت أدراجي أحمل قنينة ماء.. أقفلتُ الموبايل وفتحت مروحة الهول، ثم اطفأتُ النيون الذي أبقيه مشتعلاً طوال الليل، مغبة أن تخرج الحشرات من أوكارها ثم تسرح وتمرح في أرجاء البيت. انتبهتُ إلى أن الكثير من الأوزاغ قد خرجت من الفتحات الطولية لنافذة المبردة التي يجب إغلاقها.. السم والزقنبوت لم يجديا نفعاً.. ولا دفاتر السيكوتين التي نشتريها باستمرار.. أصابني المشهد بالهلع.. كأن تلك الأوزاغ قد قضت الليل في دق ورقص داخل بيتها وصارت معه كالدهن والدبس.. منذ سافر أبو يوسف لمصر، وهي تتخذ من تلك الفتحة المشبكة ملاذاً تنطلق منه في كل اتجاه.. تنقلاتها لا تهدأ للبحث عن حشرات أصغر منها قد تجدها هنا وهناك.. تلك الفتحة ملعونة ويجب أن نغطيها بالإسمنت.

وضعتُ إبريق الماء على النار، ثم مضيتُ إلى الحمام لاغتسل.. الماء ساخن بالرغم من أن الوقت صباح.. غسلت وجهي على عجل قبل أن أفتح الباب لسفيان... ما أن وضعت المفتاح في

فتحته، حتى تمطّت القطة ومدت أقدامها للأمام وكل جسمها يكاد أن يتقطع، ثم قفزت باتجاهي بانتظار قطعة جبن أرميها لها كل يوم. تمطّت وتثاءبت مرة أخرى، ثم سعت تمشي بين أقدامي كالأفعى حتى كادت أن تسقطني أرضاً.. إذا يأستْ مني ستعبر إلى بيت محمد الصباغ لكي ترمي لها أمّهُ بقايا فطورها..

في البيت المقابل كانت هناك فراشة بيضاء صغيرة تحلق فوق الباب.. بل هما فراشتان تدوران حول مصباح الباب الذي لا يزال مشتعلاً.. اشتعال المصباح في النهار يعطي للصباح معنى الوقت الباكر... بل يجعلني أشعر بأنني موجودة في مطار أو ميناء أو محطة قطار.. أقف بين الجموع.. أصعد وأنزل معها.. وفي الوقت نفسه تنتابني وحشة السفر، أو يتملكني الشجن في يوم هواء ومطر..... ضوء المصباح أشجاني و جمعني مع أشكال المعاني.

لم اعتقد نظري قوياً إلى هذه الدرجة.. (نيران) تخرج من باب المطبخ المطل على الحديقة، وكانت مبكرة في استيقاظها.. حتى البخار الذي يتصاعد من قطعة الخبز يمكنني أن أراه من مكاني خلف الباب. وكذلك المربع الورقي الأصفر الذي ينتهي اليه خيط كيس شاي مكتوب عليه (لبتون) يتلاعب بها الهواء. واصلتُ النظر اليها من باب البيت، فذهبت تحمل قدح الشاي إلى الأرجوحة. ومع كل نزول للارجوحة كانت تختفي من أمام عيني، ثم تعاود ظهورها من

جديد.. خرج أبوها المسن محمد الكردي من باب المطبخ، وقال بصوت خافت:

- وين المنازر.. صار لي ساعة دا أدور عليها.

سمعي أيضاً أصبح خارقاً للعادة بحيث سمعت صوت أبيها محمد الخافت، ثم صوت أمها مديرة المدرسة تسأل نيران:

- ما اسمك الحقيقي؟

قالت بصوت خفيض جداً :

- إيران محمد؟

الوقت الآن هو السادسة.. فأين هو سفيان اللعين هذا؟.. قال لي إنه واقف بالباب.. فأين دراجته؟، وماذا يحدث للشارع؟.. الجميع مبكرون في الاستيقاظ كما يبدو، وأمامي منظر غريب عجيب.. الرصيف غاص بالبشر الذين آثروا المشي على ركوب السيارات. بينهم الحوت والعنكبوت.. ولا يبدو أن أياً منهم متعجلٌ للوصول إلى أي مكان.. يتمشون على مهل، وآثار النعاس بادية عليهم.. الكل يتمطى.. الكل يتثاءب.. ويسير باتجاه واحد.. إنه صباح يوم عادي من أيام المدارس والعمل، فلماذا يجرجرون أنفسهم إليها في هذا الوقت الباكر؟.. هل يذهبون لصلاة الفجر مثلاً؟، هل هم يمتحنون، أم نتائج الامتحانات قد ظهرت هذا اليوم، وهي التي

اقتلعتهم قسراً من الأسّرة والبيوت؟ أحدهم كان يشبه شارلي شابلن، وأشار لي بعينين مغمضتين، وقال لي:

- أغمضي عينيك يا ماريا؟

- لماذا؟

- إنه كسوف كلي للشمس، وسيكون مؤذياً للعينين، ولم يشاهد العالم مثله منذ مئات السنين.. وسيكون الحدث الفلكي الأكبر لهذا العام، كما لن يتكرر إلا بعد مئة عام.

هرعتْ ماريا تدخل إلى البيت هرباً من الكسوف، فوجدتْ القطة قد عادت إلى الحديقة وبفمها كيس من النايلون تبقى من قطعة الجبن، ثم استيقظتْ ماريا من النوم على رنين الموبايل. فعرفت فوراً أنه سفيان، وأنها تقضي الجزء الأخير من النوم في كوابيس متقطعة، لأنها تعلم بأنه، رغم تحذيراتها المتكررة، سيأتي في الساعة السادسة فجراً، ويوقظها من النوم.

-3-

الشارع يستيقظ

دق جرس الموبايل في السادسة فجراً.. فانقطع الحلم الذي رأته ماريا عن كسوف الشمس، ونهضتْ متأففة من نومها.. لم تسقط أرضاً، أو تركض خارج الغرفة باتجاه الهول الذي كان ضوء النيون لا زال مشتعلاً فيه.. بل فتحت أكرة باب المطبخ.. تلعن سفيان في سرها وهي تفتح الموبايل: "شلون وياك؟ شعندك جاي من الفجر؟ كم مرة اقولك لا تجي من الفجر.. يعني كل مرة آكل هبطة من وراك."

اقفلت ماريا الموبايل وفتحت مروحة الهول، ثم اطفأتْ النيون الذي تبقيه مشتعلاً طوال الليل لكي لا تخرج الحشرات من أوكارها وتسرح وتمرح في أرجاء البيت. وضعت ابريق الماء على النار، ثم مضت الى الحمام لتغتسل.. نظرتْ طويلاً في المرآة، ثم غسلتْ وجهها على عجل، قبل أن تفتح الباب لسفيان...

بابنا تفتح بالسحب الى اليمين واليسار، ولأنها قديمة وثقيلة، فقد كانت تفتح بصعوبة شديدة.. أول أن سحبتُها هبت العصافير هبة واحدة واصطفقت أجنحتها اصطفاقة يرقص لها القلب.. خفت أن لا أسمع مثل هذا الصوت في مصر.. خفت أن يختفي كل شيء

في مصر. يقول زوجي عبد الملك إن نوافذ الشقق متقاربة إلى بعضها البعض، بحيث لن تجدي مكاناً آمناً تنزعين فيه ملابسك، فكيف تسمعين صوت العصافير، أو تشمين رائحة التنور... زوجي له شعر كثيف في رأسه.. أسمن مني بكثير. وسار من نبع الجدول حتى مصبه.. فراراً من الجحيم، ووصولاً إلى الحفر التي يغطيها السردين المهاجر بالتراب. قفز مع الذين يتحركون إلى اليمين واليسار في وقت واحد.. كأنهم لا يرغبون بتغير الوضع هنا نحو الأحسن حتى يبرروا لأنفسهم البقاء في بلدان جميلة وآمنة وبعيدة عن جهنم الحمراء. فليذهبوا إذن إلى مصب النهر، أو إلى الجحيم.. الماء سيظل يجري في الساقية.. الماء يتجمع في جوف الغسالة التي امتلأت بالملابس المتسخة، ويجب أن أغسلها بعد البدء بالفطور و قبل انقطاع الماء والكهرباء.

عليكِ بعملك فقط يا ماريا، قالت لنفسها، ولا تتدخلي بأمور الآخرين.. الجميع قد رحل بسبب مقنع، والأسباب المقنعة كثيرة.. قد يكون مصنوعاً من الزجاج.. أو ملفوفاً بورق الهدايا، أو يكون قد ولى رعباً من قائمة الأسماء الإثنى عشر على عدد أشهر السنة، والتي جاءت إلى البلاد، وجعلتها تسير في نفق مسدود في نهايته نفق آخر: لا سلطة الائتلاف المؤقتة ولا مجلس الحكم ولا بول بريمر و لا قوات التحالف ولا العراق الجديد جعلت حياتنا أفضل من السابق.. ولو كانوا قد وقفوا لجانب بعضهم البعض، لقاموا بواجبهم على نحو

جيد، غير أن كل واحد منهم فعل ما بوسعه ليبدأ الجحيم منذ لحظة اختياره لمجلس الحكم. تشابكت الملابس بنحو مزعج داخل جوف الغسالة بحيث شعرت ماريا بالعجز عن فك اشتباكها المتحجر. في الأول والتالي عليها أن تستعجل إخراجها قبل أن تنقطع الكهرباء، ولو كان زوجها أبو يوسف هنا لحذرها من الإهمال في غسل وكيْ سرواله بحيث تختفي الكسرة الطولية الحادة التي تقسم السروال من الوسط.

الناس الذين حضروا معي لاستلام الراتب الأول بعد الحرب كان عددهم كبيراً بحيث وقفنا في الشارع بدون مكان.. وكنا أيضاً في فراغ مديد من الزمان... طرطميس لا جمعة ولا خميس.. لا شغل ولا عمل.. ليس لدينا ما نفعله سوى الحديث حول هذه الأحداث الغامضة، والمباني المنهوبة، والنتائج السيئة لهذه الحرب الكبرى.. صحيح أن المحلات امتلأت بقناني المياه المعدنية، مع اشياء أخرى لم يكن متعارفاً عليها بين الناس، كالموبايلات والستالايتات، وبعض الفاكهة الإستوائية التي ظلت تتكبر على المشترين حتى بعد انتهاء الحصار ، إلا أنه لا شيء كان يمضي نحو الأحسن.. هنا سأل الملكُ الوزيرَ:

- لماذا أجد خادمي سعيداً أكثر مني في حياته، وهو لا يملك شيئاً، و أنا الملك لدي كل شيء و متكدر المزاج؟!

فقال له الوزير:

- جرِّب معه قاعدة الـ 99؟

فقال الملك:

- و ما هي قاعدة الـ 99 ؟

قال الوزير :

- ضع 99 ديناراً في صرة عند بابه في الليل؟ و اكتب على الصرة 100 دينار هدية لك، و اطرق بابه، و انظر ماذا سيحدث...

فعل الملك ما قاله له الوزير، فأخذ الخادم الصرة فلما عدها قال: (لا بد أن الدينار الباقي وقع في الخارج)، فخرج هو وأهل بيته كلهم يفتشون، وذهب الليل كله و هم يفتشون، فغضب الخادم عليهم بعد أن لم يجدوا هذا الدينار الناقص، وثار عليهم بسبب الدينار الناقص... أصبح الخادم في اليوم الثاني متكدّر الخاطر لأنه لم ينم الليل، فذهب إلى الملك عابس الوجه غير مبتسم ناقماً على حاله.. علم الملك ما معنى الـ 99، وهي أننا ننسى تسعاً وتسعين نعمة، وهبنا الله إياها، ونقضي حياتنا كلها نبحث عن نعمة واحدة مفقودة!

رؤوسنا قوية ومراسنا صعب، ولا نرضى على شيء البتة، لا على الطرة ولا على الكتبة.. مما جعل المشاكل تبقى أو تتزايد بعد كل تغيير.. مع هذا ظلت الأمور تمشي وتسير يداً بيد مع الحياة التي لا يمكن لها أن تتوقف.. والجبهات إذا كانت مشتعلة بالنار والشرار في كل مكان، فمحمد ورفاقه الأربعة من الصباغين لا زالوا يغنون

لحسام الرسام أغنية عن العقربة التي قرصت جميع الناس، و كأن ذلك الغناء يريد لعن الحرب وويلاتها! بعد أن تعاونت جميع الجهات على نشر الموت والقطيعة، وزودت البسطاء بالأفكار اللازمة لذلك، هذا ما تفكر به ماريا مع نفسها، وتقول دائماً: كل ما مر بهم في كفة، وما سيحدث في كفة أخرى..

المفروض أن يكون سفيان واقفاً هناك ليساعدني في سحب الباب الثقيلة، لكنه غير موجود.. فأين هو هذا اللعين.. اتصل بي قبل نصف ساعة وقال إنه بالباب.. فقلت له نظف حديقة الرصيف ريثما أخرج من نومتي العزيزة إليك.. لعله الكذاب لا زال في الطريق.. صحيح أنه نحيف كخيط ملظوم بالأبرة، ولكنه مشاكس وعنيد ولديه رأس قوي أيضاً.. يجب أن أتظاهر بارتياحي لزياراته المبكرة إذا أردته أن يفعل العكس، وإذا أردته أن لا يصعد النخلة، فيجب أن أجعله يظن أنني أريده أن يصعد هذه النخلة، ولأنه عنيد فإنه لن يفعل، وهذا يكون هو ما أريده!

قبل أن أرجع أعقابي، لمحت محمد الصباغ خارجاً من بيته الذي يقع على اليمين من بيت أورشينا المقابل لبيتنا.. هرع لمساعدتي بعد أن ألقى التحية. جماعة الأربعة من أصدقائه القوا التحية أيضاً.. أطوالهم متفاوتة بشكل لافت، وفانيلاتهم ملطخة بطلاء متيبس.. وشورتاتهم الثخينة أصبحت تصل تحت الركب اتقاءً لغضب الشيخ محمد. يجب أن استغل سفر زوجي عبد الملك إلى مصر، وأجعلهم يعيدون طلاء غرفة الضيوف.. وقد أدخلهم أيضاً إلى غرفة

الجلوس.. وأشير بيدي إلى فتحة المبردة المائية التي تحتاج الى غلقها بالإسمنت.. فالكثير من الاوزاغ تتكاثر فيها.. وأظنني لم أعد بحاجة الى منظرها الرث، بعد أن وضعنا جهاز تكييف في الغرفة. صحيح أنه لا يعمل سوى عند وجود تيار الكهرباء الوطنية، لكنه بتلك البرودة الشحيحة يأتي لنا بالفرج بعد الضيق والشدة.. (سبلت) وطني حقير، كما يقول زوجي عبد الملك. وقصته مع العطلات طويلة جداً.

لا يزال محمد الصباغ واقفاً ينتظر جماعته تتطاير عليه بعض أوراق الأشجار من الرصيف، ولن يتحقق ما أردته من طلاء البيت إذا ما جاءت واقتربت ظروف السفر التي أؤجلها منذ عام كامل.

- أنتَ؟

- أنا؟

- نعم أنت.. ليش لابس شورت ومطلع الركبة..

كان أحد جماعة الأربعة يمازح محمداً، وهو أطولهم جميعاً، متحدثاً معه على طريقة الشيخ محمد.. ثم التفت إلى رفيقه الآخر الأقصر منه، وقال له:

- وأنت يا أبو الفانيلة الآسقيات.. ليش ما لابس هدومك؟.

ليست الحرب ضمن همومهم.. سيتناوبون في السخرية من بعضهم البعض عن أعمال الشيطان، وسيغنون بعد قليل.. يمة لدغتني العقربة.... تارا تارا تارا.. ما ندري لمن تفوت منهو عدل

منهو يموت. يُمّه لدغتني العقربة. تارا تارا تارا تارا.. عصابة خفيفة الظل في وقت الصباح الناشف.. تجعلني أنسى الحزن والحرب وجحيم الحر ومشكلة الكهرباء وشحة الماء، وأغبطهم على فرحهم بالدنيا كل يوم.. إذا ضحكوا تحرك الهواء الراكد حولهم، وإذا رأوهم جنود الدبابات تأملوهم، ثم تحركت كفوفهم الكتانية السميكة بالسلام على أولئك الفتيان الذين يحملون الدلاء والفرش وباقي عُدَدَ أعمالهم ويضحكون. بائع قناني الغاز يمر أيضاً، وهو عصبي المزاج ويرد سلام المارينز بكلمات لا تتغير.. لا هلا ولا مرحبا.... بالوجه مراية وبالقفا سلاية.. فتتطاير الضحكات من أفواه محمد ورفاقه الأربعة، ثم يمر طبيب التشريح مسرعاً بسيارة تطلق صوتاً كالأزيز.. وهو الوحيد الذي يعمل بجد فوق جدار الفراغ الذي نمشي عليه. أصبح اسمه الدكتور عبد الفتاح بدلاً من الدكتور محمد عبد الكريم..

ذهب الوقت وأنا أرى الصباغين الأربعة وكبيرهم محمد على الحالة نفسها من الانشراح كل يوم، فأتذكر حال رجل عجوز يُحكى أنه كان جالساً في القطار مع ابن له يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة.. الكثير من البهجة كانت بادية على ملامح الشّاب الذي يجلس بجانب النّافذة. أخرج يديه من النّافذة وشعر بمرور الهواء، وصرخ: أبي، أترى كلّ هذه الأشجار تسير وراءنا!، فتبسّم الرّجل العجوز متماشياً مع فرحة ابنه. وبجانبهم زوجان يستمعان إلى ما يدور من حديث بين الأبّ وابنه. وشعرا بكثير من الاستغراب، فكيف يتصرّف شاب في هذا العمر مثل الطّفل !. فجأةً صرخ الشّاب

مرةً أخرى: "أبي، انظر إلى هذه البُركة وما فيها من طيور وحيوانات، انظر إلى الغيوم كيف تسير مع القطار". واستمرّ تعجّب الزّوجين من حديث الشّاب. ثمّ بدأ المطر يهطل، وقطرات الماء تتساقط على يد الشّاب، فامتلأ وجهه بالسّعادة، وصرخ مرةً أخرى: "أبي إنّها تمطر، والماء لمس يدي، انظر يا أبي يدي مبللة بماء المطر." في هذه اللحظة لم يستطع الزّوجان السّكوت، وسألا الرّجل العجوز: "ما هذا؟ لماذا لا تأخذ ابنك إلى طبيب ليعالجه؟"، هنا قال الرّجل العجوز: "إنّنا قادمون من المستشفى في واقع الامر، حيث أنّ ابني يبصر لأوّل مرّة في حياته!".

يبتعدون في الشارع من جهة بيت الشيخ محمد، فيأتي سفيان من جهة بيت المخابيل.. يضحك لأنه قال لي بأنه واقف في الباب وهو لا يزال في الطريق.. إنه متوقف قرب الرصيف لالتقاط زجاجة مشروب أو عصير فارغة وجدها بحالة جيدة.. لم يعد يفعل ذلك أحد منذ ان انتهت سنوات الحصار، وأصبحت القناني الفارغة تملأ الشوارع والأرصفة، بحيث تسببت في انعدام النظافة حتى في الشوارع العامة التي تحظى باهتمام نسبي من عمال البلدية.. لم نظن أن الفلوس ستؤدي بنا إلى كل هذه التلال المتلتلة من أكوام القمامة، ولا أن قناني المياه المعدنية والمشروبات الغازية ستشوه كل شبر من أزقتنا.. الناس يرمونها من نوافذ السيارات بلا مبالاة شديدة، فلماذا يرفع سفيان واحدة من تلك القناني من الأرض؟

[ماريا في فقرة تتحدث بضمير المتكلم، وفي فقرة أخرى بضمير الغائب .. وجدت هذا مربكاً في البداية يا أورشينا. وسأرى كيف سيتكرر في باقي فصول الرواية.. قلتِ إن ماريا أحستْ ببرودة خفيفة بالرغم من كوننا في شهر أيلول، وبعد قليل قلتِ إنه الخريف. هل يبدأ الخريف بشهر أيلول عندنا في العراق؟؟؟ وما معنى أن تقول ماريا في الفصل الثاني من الرواية : ضوء المصباح أشجاني و جمعني مع أشكال المعاني!!! أضع ثلاث علامات تعجب أمام تلك العبارة، لأني لا أعرف ما هي درجة ثقافتها؟ ولماذا تقول الكلام مسجوعاً؟ هل هي شاعرة فطرية مثلاً؟ يجب أن نعرف المزيد عنها بحيث تبررين طريقة تفكيرها.. وأسلوبها الغنائي في الكلام.. إنها شخصية تستحق التوقف والإهتمام، ولحد الآن، تبدو كمية الأوكسجين في دماغ الكاتب ممتازة. هههههه بداية الرواية هي تاجها وهي رتاجها.. وقد وجدت البداية جاذبة للانتباه، في الوقت نفسه لا أجد ضيراً من أن أمحي فصلها الاول إلى مكان آخر، وأفضل عليه تاجاً آخر أضعه في مكانه، كأن يكون فصلها الثاني أي فصل (الحلم) الذي ينتهي بمشهد كسوف الشمس. وإن حدث هذا، فسيكون بعد انتهائي من قراءة الرواية. أرجو يا أورشينا تثبيت المصدر الذي أخذت منه حكاية الملك مع الوزير، وحكاية العجوز مع ابنه في القطار.. معلومة الغراب الذي يستطيع تذكر وجوه الناس هل هي حقيقة أم محض خيال؟]

t.me/read4lead

سفيان وماريا

نشيطة بالرغم من شعرها الأبيض... آفة ولفلافة.. تقود سيارتها وكأنها تمشي على البيض، وتشتري كل احتياجات البيت بنفسها.. يبدو أنها تاخرت في زواجها، لأن يوسف ولدها الوحيد لا زال في عمر المدرسة.. أظنه في الخامس الثانوي أو نحو ذلك.. وهي في الخمسين أو أكثر. وإذا صادفت عودته من المدرسة، وأنا أعمل في الحديقة، فإني أراها تأخذ منه الحقيبة والكتب، وأحياناً تعطيه منديلاً معطراً ليمسح يديه، ثم تسرع لفتح باب المطبخ ومعاجلته بقدح ماء بارد أو منشفة صغيرة يجفف به عرقه الذي يتصبب حتى من عينيه.

اقتربتُ من البيت، بعد مسافة من اجتياز بيت المخابيل الذي لا أجرؤ على طرق بابه حتى في النهار، فوجدت الشارع خالياً من المارة..... لا شيء فيه سوى خمسة شبان ينعطفون من نهاية الزقاق حيث يقع بيت الشيخ محمد.. أظنهم محمد وجماعته من الصباغين.. قلت لماريا إنني في باب البيت، وأنا لست بباب البيت.. ستعنّفني على كذبتي هذه. وعباس ايضاً سيعنفني لأني أبكر في الخروج من البيت وأزعج الزبائن.... منذ اليوم الأول، وحتى اليوم الأخير للامتحانات، لم يتصل بي. يصعد كل يوم إلى السطح المظلم للغاية، من سلم جانبي يربط الطابق العلوي بالأرض.. وصوته يظل

يتردد عالياً إذ يغني حتى يصبح في السطح ثم يختفي صوته عندما يحتضن دمية ليليا.. عباس أين أنت؟ عباس لا يرد.. عباااااس إنزل.. لا أحد يرد.. لك إنزل عبوسي إجا أبوك.. فينزل ليساعده في ملء خزان النفط من المحطة منتصف الليل، والآن أرى اسمه يضيء في الموبايل قبل وصولي لبيت ماريا.. قال لي:

- لك شعندك مغبّش ومكعّد ماريا من النوم؟

- لا أعرف ماذا أفعل بعد صلاة الفجر فأركب البايسكل وأطلع للشغل.

- صاير تصلي؟

- شعبالك لعد؟!..

- شلون توصل بالستة وأبو غريب بعيدة؟

- لا مو بعيدة... أصلاً اليوم وصلت بربع ساعة، حتى أبو السيطرة ما وقّفني.

- أنت وين هسّه؟

- آني مدا أشوف دربي، لأن محصور بولة من الصبح..

- ما تبول.. منو لازمك؟

- وين أبول؟ بجيبك؟ الدبابات بكل مكان.

- انتظرها لما تولّي. وإذا خلصت من بيت ماريا عود انتظرني يم حجي محمد ناصر.

- هاي إذا اعطتني ألف زايد؟ خوما أكسر الخمسة علمود لفة فلافل.

- انت مو تقول ماريا خوش مرة؟

- إي خوش مرة، بس نوبات ما عدها خردة.

- ميخالف، هم انتظرني يم أبو الفلافل، عود أريّكك على حسابي.

- دخلص امتحاناتك الأول؟

- خلصت البارحة، ما تشوفني طالع للشغل؟.

- هههههههههه.. هلو ياب.. عمي شيحجّيك بعد إذا نجحت..

خرج سفيان ذلك اليوم من بيته على دراجته الهوائية السوداء التي اشتراها من فلوس عمله في البلدية، ويضع في حوضها الخلفي ماكنة قص الثيل والخرماشة والمنجل وبعض الأدوات الخاصة بتشذيب أشجار الحدائق.. اعتاد أن يتصل بكل جماعته من الفلاحين الصغار خلال الطريق.. ولكنّ امتلاء مثانته يمنعه من فعل ذلك اليوم.. لقد شرب الكثير من الشاي في الصباح.. تلذذ بطعمه الطيب بعد تناوله قطعاً من الخبز مع الدبس والجبن الأبيض الطري الذي تُخمّره أمه الحجية من حليب الماعز.. أخوته يتأخرون قليلاً في النوم.. وبالرغم من كونه أصغرهم فهو الذي يبكر بالخروج قبلهم،

وعندما يستوي على مقعد الدراجة يشعر بأن العالم كان ضده قبل لحظات، ثم فجأة أصبح معه ومُلْكَ يمينه.. بما في ذلك ماريا التي يتوجه إليها أولاً.

لا أجرؤ على طرق باب أحد غيرها قبل السادسة صباحاً.. تزعل قليلاً وتعنفني، ولكنها طيبة القلب وترضخ في النهاية لقطع نومتها العزيزة.. اسمها ماريا أم يوسف، وأنا أسميها أم الياس بسبب حديقتها التي يسورها الياس من كل مكان، وحديقة الرصيف أيضاً عليها صف من الياس يجاور الرصيف ثم يعلو على شكل قوس فوق باب الكراج.. أنا الذي أشذب وأحدد لها هذا القوس كل مرة.. وعندما ترضى عن عملي تعطيني الفاً إضافية فوق المبلغ المتفق عليه، وهو خمسة آلاف دينار، وطبعاً تعطيني الفطور والشاي وبعض ملابس ابنها يوسف عندما كان بمثل عمري. أحياناً أراه يخرج بسيارة أبيه في عز الحر والزجاجة مغلقة، مما يعني أن التبريد مشتغل بداخلها. ولكن أين ذهب أبوه عبد الملك؟ لم أعد أراه منذ فترة طويلة.

جاء الدكتور محمد طبيب المشرحة يصلح سيارته عند بشار الميكانيكي.. أخذ الميكانيكي يفتح ماكينة سيارة الطبيب و يخرج منها بعض الأشياء لكي يصلحها، ثم اقترب من الطبيب بوجهه الملغمط بالدهن الأسود وقال: ماذا تفعلون بالجثث؟ هل تجرون عليها ما

أفعله أنا من الصيانة و التصليحات على السيارات؟ فلماذا إذن لا تعود مرة أخرى إلى الحياة؟ ضحك الطبيب من كلام الميكانيكي و قال له: كيف نتمكن من إصلاحها بعد أن يكون محركها قد انطفأ تماماً في منتصف الطريق!!

الكثير من المصائب أصبحت تحدث في الطريق، وأمي حذرتني من الطريق، ودعت الرحمن أن يحفظني، وينجيني من مهالك الطريق.. ظلت تتحدث إلى الله ورأسها متجه للسماء حتى بعد أن اختفت رائحتها من الهواء.. كانت قد نامت ليلتها بعد أن هيأت لوازم سفرها إلى أختي الكبيرة التي توشك على الولادة في القائم، وفي الصباح الباكر نخلت الطحين وسجرت التنور، ثم مضت إلى الحائط وعلقت الغربال، وفي أصابعها لا توجد حلقة ذهبية كالتي ترتديها ماريا ولا تنزعها أبداً. ظلت قلقة تؤكد علي بالعودة في وقت النهار لأنها تسمع عن الكثير من حوادث الخطف وقت الغروب. حتى بيت المخابيل أصابته الصنطة فلم تعد علياء تصرخ صرخاتها المخيفة وقت الغروب. لا أعرف ماذا حدث لها.. ولكن عباس يقول بأنها أصبحت تخاف أن تخرج من البيت وتجد الدبابة تقف بباب البيت.. الظاهر أنها لا تريد للجندي أن يراها أو تراه.

ماريا أم يوسف لا تخرج؟. الباب مغلقة إلا قليلاً .. فهل عادت إلى النوم؟.. لقد أيقظتها قبل قليل وعنّفتني على قدومي

المبكر، ثم هدأتْ، وقالت إنها ستفتح الباب، وطلبت مني تنظيف حديقة الغصيف.... لها لهجة غريبة تلفظ بها الراء غيناً.. وهذا القط السمين لماذا لا يتحرك؟ أظنه تاتلي، نعم هو تاتلي بنفشة ذيله الغريبة، و خطوط البياض الناصع حول قوائمه الأربعة.. هممم.. لم يسبق لي أن رأيته هنا في بيت ماريا أم يوسف، فماذا يفعل على رصيفها؟ طردته من بين رجليّ، فراح يحفر الأرض في مكان آخر، ثم بدأت أعمل في حديقة الرصيف إلى أن تفتح ماريا أم يوسف الباب.. جمعت الأوراق والأوساخ في كومة على الرصيف.. بدأتُ أرى بخار الكتلي يتصاعد من خلف الشباك.. ثم امرأة غيرها تخرج من باب المطبخ.. ماريا أم يوسف تغير شكلها كثيراً.. وأصبحت تضع الفوطة السوداء على رأسها.. فهل هي ماريا فعلاً؟ وهل اخطأتُ البيت؟

ظل صديقي عباس يضحك مني كثيراً عندما أخبرته بما حدث، ولأن رجلي أطول من رجله، فقد استطعت رؤية أم أدهم تطل برأسها من باب المطبخ.. وعرفت سبب الخربطة التي حدثت بين الرصيفين. البيتان يتشابهان في الخريطة وكأنهما توأم.. وأنا شربت الكثير من الشاي حتى كادت مثانتي أن تنفجر ، فلما أفرغتها في قنينة ببسي كولا، أم الألف دينار، شعرت بالدوخة قليلاً، واختلط عليّ المكان.

خفت أن اتبول أين ما كان.. أو أرمي الزجاجة كيفما اتفق.. لأني رأيت الدبابات واقفة في رأس الشارع، فتلبسني الخوف بحيث فكرت أن أتبول داخل قنينة ببسي كولا دون أن أولي ظهري للشارع.. ثم فكرت أين سأرميها؟ قد يقتلونني مثلما قتلوا قاسم السباك الذي عبر الشارع يحمل على كتفه آلته ذات الأرجل الثلاث والبوري الطويل، فظنوه يحمل قاذفة آر بي جي 7. مع هذا مال صديقنا الأثول جعفر إلى الدبابة الأمريكية وسلم على جنودها لكي يعطوه الماء والعصائر. ثم صفق لنفسه كالمخبول لأطول مدة ممكنة.

ليت أم يوسف تتأخر في خروجها حتى انتهي من رمي القنينة.. فعادة تفتح لي الباب الثقيلة قليلاً، ثم أساعدها في فتحه وسحبه على السكة حتى النهاية، وأحياناً أكمل تنظيف الحديقة قبل أن يستيقظ ابنها يوسف ذاهباً الى المدرسة.. إنه في عمر صديقي عباس تقريباً، ولديه امتحان ايضاً.. وقد تخرج أمه ماريا في أية لحظة لترى لماذا تأخرت في الوصول.. لا تعلم أن مثانتي هي السبب... وأني كنت مجبراً على التبول داخل قنينة ببسي كولا، والتخلص من القنينة أيضاً في مكان مظلم هو برميل الزبالة.

قالت لي ماريا أم يوسف أول أن رأتني:

- أين أنت؟ خرجت قبل نصف ساعة ورأيتك في رأس الشارع ثم اختفيت، فأين ذهبت؟.

لغمطت جوابي قدر المستطاع، فلم أخبرها عن الخربطة التي حدثت بين رصيفها ورصيف بيت أم أدهم، ولا عن الدوخة التي شعرتُ بها بعد التبول.. كان خدها الأيمن وارماً بحيث زالت عنه التجاعيد، وأصبح يشبه خد نانسي عجرم. كما جاءت الهمر الأمريكية، وانضمت إلى الدبابة التي توقفت في رأس الشارع من الجهة التي أتيت منها، وليس من الجهة الأخرى التي خرج منها محمد الصباغ ورفاقه الأربعة.. لا يهمني بعد الآن شيء.. شعرت بالراحة بعد أن أفرغت مثانتي وانفصلت عن الأرض.. وإن جاؤوا للتفتيش فليفتشوا الدنيا كلها.. الشارع هاديء هذا اليوم بسبب وقوف الدبابة،.. فيجب أن أخبر ماريا أم يوسف بأن هناك تفتيشاً قد يحدث بعد قليل، وقد يغلقون الشارع من الجانبين. ستقول لي شصار بالدنيا؟ فأقول لها انقلبت الدنيا.

-5-

ماريا تتذكر أوائل البيوت

عندي قناعة من الطريقة التي تجعلنا وتجعل أطفال الحدائق سعداء للغاية في التعامل مع الورد والشجر والأرض.. بأن أصل الإنسان هو النبات، وليس الحيوان؟ يتجدد المشهد أمامهم كل مرة بخلق جديد.. أغصان ناشفة من أوقات الصيف، فأخرى مشذبة وقت الخريف، ثم مبللة بالأمطار في وقت الشتاء، ثم مزهرة بالورد وقت الربيع، متحدية، على رقتها، كثرة العواصف والتقلبات الجوية... يبدون سعداء ولاهين عن أخبار القتل والخطف، متبادلين أخبار الماء الذي يحصلون عليه كلما اجتهدوا مبكرين في سقي الحدائق.. أو أصوات رنات الموبايلات الجديدة التي يتداولون الأجدد منها حسب إصدارات السوق، وكانت تعبر أيضاً عن تفاوت طوائفهم بتفاوتها بين موسيقى الإشارة لنشرة الأخبار القديمة، و لطميات الرادود باسم الكربلائي..

يجب أن يكف سفيان عن إزعاجات الصباح الباكر.. مليون مرة أخبرته بذلك.. والمليون أكثر من الألف يا سفيان.. والعناد سيّئ مع الرجال.. وقد تنال بعض الصراخ إذا كان زوجي عبد الملك موجوداً في البيت.. إنه يتجاهل الفقراء قدر الأمكان، ويعقم يديه عشر مرات إذا لم لم يجد بُداً من مصافحة أحدهم. ولا تزال قناني

المعقمات موجودة في كل مكان من البيت، و قد أعطيت بعضها لسفيان نفسه.. فقد يجرحه المقص، أو قد يؤذيه المنشار الذي استعاره من قريبه البستاني جعفر، وعليه أن يعيده مرة أخرى وقت الضحى.

- دير بالك لا تقصصقص الكثير من أغصان النارنج.. فقط تلك التي تكلكل على الثيل وتمنع عنه الشمس.

عدت بقنينة الماء بعد قليل، فوجدته قد حول اشجار الرارنج الثلاث إلى أشجار عارية من الأسفل، وكأنها قد خلعت عنها سراويلها. المنشار في يده.. ورائحة بذور الكتان تعطعط على وجهي الذي انتفخ ليلة أمس بسبب خلطة جديدة لشد الوجه ومسح التجاعيد، وهي الأفضل لحذف أعوام من العمر، حسب المجلات التي لا تكف عن خداعنا... أنا مُصرّة على تصديق الهراء والعودة إلى الوراء.. وهذه هي النتيجة التي جعلتني أدّعي أمام سفيان أن سني وارم، فظل يضحك وهو يكنس الأغصان المقصوصة بمقشة مصنوعة من عثق لخيل عار من التمر، ثم يلملمها داخل ستارة قديمة وضعَها فوق مؤخرة الدراجة لأخذها إلى تنور أمه أو أم عباس. كما غربل الأغصان واقتطع منها بعض الزوايا بحثاً عن غصنين متلاصقين يصلحان نقّافة لصيد العصافير..

- ماذا تفعل؟ إياك وصيد العصافيغ يا سفيان؟

- لماذا تضحك.

- حاضر.. حاضر.. حاضر. لن أصيدها.

- ولا تضغب بها القطط.

أصبح لديه سببان للضحك انتفاخ خدي، واعوجاج لساني.. طويت له ستارة جديدة بشكل مرتب، ووضعت فوقها بعض السجق المغلف بنايلون أحمر يشبه الجلد.. ما هذا؟، نظر إليه سفيان باستغراب.. وقال هل يأكله هكذا مباشرة؟، قلت له بل بعد أنْ تصلَخه وتنزع عنه ثوب النايلون أولاً.. فوضعه مع باقي الحاجيات في حوض الدراجة الهوائية، لا يزال يضحك، ثم انطلق بها مسرعاً دون أن يجد طريقة للسير بخط مستقيم غير متعرج، أو يستطيع تجنب ازدحام المارة الذي أصبحوا لا يجدون رصيفاً يسيرون عليه..

أبو خلدون مات يوم أمس.. وبابهم مفتوحة على مصراعيها منذ الصباح الباكر... كنت أراه قبل عشرين عاماً يقف في الباب ليراقب حركة البناء في الشارع الذي كان فارغاً إلا من بيته عندما جاء زوجي عبد الملك بالمساحين لقياس وتثبيت حدود قطعة الارض.. أبو خلدون هو الذي أشار علينا من أين نأتي بمواد البناء.. الكلوردين من السنك، والرمل من مدينة كربلاء، والسبيس من مقلع النباعي قرب التاجي.. وبعد أن أنتهى بناء البيت وانتقلنا

إليه، جاءت اللويات بالطابوق وأكياس السمنت مرة أخرى، فارتفع بيت محمد الكردي الى البتلو، ثم ذبحوا القربان، ووزعوا اللحم على الفقراء.. ومن البتلو إلى الربّاط ارتفعت بعده سقوف عديدة.. ودُكت أساسات جديدة بالجلمود وشيش التسليح، ثم صبت بالاسمنت والحصى والرمل الذي تخلطه الخباطات ذات البطون الدائرية.

تفنن أصحاب البيوت بالواجهات الأمامية. وكانت تتغير كل فترة من النثر إلى المرمر إلى الحجر.. ما عدا بيت محمد الكردي الذي ظل على حاله منذ أن هُجّر قسرياً إلى ايران... وظلت الكثير من أسرار الناس خافية عنا قبل الحرب، ولا نعرف عنها سوى ما تقوله وزارة الداخلية ورجال المخابرات، وهي أن هؤلاء العراقيين هم من التبعية المرتبطة بايران ويجب تسفيرهم بسبب الحرب، وإذا صعد المجنون على الشجرة، فالأفضل لك أن تنزل أنت كما كان يقول جارنا محمد الكردي، فيجيبه عبد الملك زوجي: بل الأفضل أن ينزل الجميع.

بدأ محمد الكردي، بعد عودته من إيران، دورانه بين المحاكم والقضاة لاستعادة بيته المصادر، وعملت الصدف العجيبة عملها، فأصيب بحادث انفجار في منطقة البياع، وقضت ابنته الكبرى عليّة بذلك الانفجار .. خرج معها من البيت بسيارة تكسي ثم عاد بعد

قليل ودخل الحمام وتأخر هناك.. كان يفكر طوال الوقت بهذا التأخّر الذي جعله يصل المحكمة مع الارهابي في وقت واحد.. ويندب عودته من إيران للعراق أمام الرائح والغادي .. رأيته يتوسط باب البيت وبيده سيكارة يتعالق دخانها بين طيات الهواء.. وبحسرة من لا يدري أين هو، أو ماذا عليه أن يفعل هنا، أو كيف يتدبر أموره، ظل ينظر لي لحظات عندما توقفت بسيارتي قريباً منه وسألته: كيف حالك أبو علاء؟ فأجابني وقال:

- لو كنت أعلم هذا ما سيحدث لي في النهاية لتركت ورائي كل شيء امتلكته هنا قبل عشرين عاماً، وبقيت مع ابني علاء في إيران.. لا زلت أراجع المحاكم من أجل الحصول على الجنسية. وأية فائدة لم تنلني من هذا الرجوع، بل نالتني الخسارة.

أبو خلدون مات يوم أمس، ومحمد الكردي يقف واجما يدخن سيكارته، ويراقب بعيونه الملونة طريق الفلاحين الصغار الذين يمرون فوق دراجاتهم الهوائية مع أطفال المدارس وقت الظهر .. سيارة الهمر متوقفة من جهة بيت النبقة، وقد تساقطت فوقها بضعة ثمرات وأوراق صغيرة من أغصان السدرة المتفرعة إلى مسافات بعيدة تصل إلى بيت جارتي أم ادهم... تلك الشجرة العملاقة كانت تحتضن البيت الذي تسّمى باسمها، فكانت تمنحه مهابة لا يمتلكها أعلى برج أو مبنى في العالم.. هذا ما تفعله الأشجار

القديمة بالبيوت.. تجعلها جميلة ومهيبة وذات تاريخ لا يُشترى من المشاتل ومحلات السنادين. وعندما ننظر إليها تنتابنا الرهبة لأننا نستعيد أجداداً زرعوها وجعلوها جزءً أصيلاً من خريطة البيت لا يمكن تغييره بسهولة.. تحركت الهمر بعد قليل، ووصلت قريباً من بيته، فرفع أحد جنود المارينز يده بالسلام، رد أبو علاء السلام بدون حفاوة، ثم قال لي وهو يشيعها بنظره:

- دخانهم عمانا وخيرهم ما إجانا؟

[تأكدي يا أورشينا من كلمة نقافة هل هي فصيحة؟ وكلمة تبعية يجب شرحها ماذا تعني بالضبط، هل تعني حالة عامة من حملة الجنسية الإيرانية في العراق، أو تعني ذوي الأصول الإيرانية حتى وإن لم يتجنسوا.... كانت لدي خشية من الإسراف في استعمال كلمتين تُبهت وتتعب الجملة كثيراً بسببهما هما (كان ولكن). وجدتك مقلة فيهما، مثلما أنت مقتصدة في أدوات الوصل (الذي والتي والذين)، وهذا ما لم أتوقعه من كاتبة في بداياتها.. هناك مشكلة في الانتقال من وعي ماريا إلى الراوي العليم في جملة محمد الكردي (كان يفكر طوال الوقت بهذا التأخّر)، وجملتها الأخرى (أصبح لديه سببان للضحك انتفاخ خدي، واعوجاج لساني).]

-6-

سفيان

قضى سفيان الليل في خوف مستمر ينتظر انقلاب الدنيا.. وكان الخوف يتحول إلى ذعر مع كل طبة يسمعها وتجعله يفز من النوم.. المفروض أن تنقلب الدنيا في العام ألفين.. وأن تهبّ الرياح العاتية وتزمجر الأعاصير وينخسف القمر. وهذا ما قاله جميع الركاب في سيارة التاتا.... قبل أن يصبح سفيان بستانياً في حديقة ماريا.. ولكن لا تسأله ماريا ماذا كان يعمل في السابق.. ولا تدري كيف تخيل الأوحال والأهوال وجريان السيول في شوارع بغداد، مع العواصف التي تقتلع النخيل والأشجار من جذورها، أو تجعل البيوت تنخسف سقوفها وتتساوى بالأرض.

في الليل سمعتُ صوتاً صادراً من الأرض يشبه صوت تكسّر شيء.. الأرض بدأت تتكسر، وأنا أجري خائفاً، فرآني أخي حمودي، وسألني ماذا حدث يا سفيان؟، فقلت له: الأرض ستنكسر بنا وتبلعنا. فأخذ يجري معي أيضاً، في حين أنه لا يستطيع التحرك أو المشي في العادة. الناس يسألوننا في الطريق لماذا تركضون؟، فنخبرهم بأن الأرض تتكسر، فيركضون هم أيضاً، حتى صارت الأوادم كلها تجري مذعورة وتتعثر بسطوح بيوتها الساقطة على الأرض.

في الصباح عافت نفسي الطعام، وتركتُ الذباب يحوم حول وجهي.. ولم أذهب لكي أغسله إلا عندما وجدت الأرض ثابتة في مكانها، وسمعت بأن سيارة التاتا هي التي انقلبت، ولم يكن فيها سوى السائق، وبضعة جنود لم يصب أحد منهم بالأذى.. أخبرت ماريا أم يوسف بما شعرت به من خوف قبل أعوام، وكانت تضع دبوساً على شكل عصفور في شعرها، فحذرتني من التشاؤم أو الحديث بمثل هذا الكلام، فالخير لا يأتي إلا عند التفاؤل بالخير. قالت لي: يُحكى أن في قديم الزمان كان هناك إمبراطور ياباني معروف بقوته وشجاعته وقوة شخصيته، وكان معتاداً قبل كل حرب يخوضها مع الجيش أن يقوم بجمع الجنود، وبعد ذلك يلقي قطعة نقد صغيرة عالياً في الهواء، فإن سقطت على الصورة يقول للجنود "حتماً سننتصر"، وإن سقطتْ على الكتابة يقول لهم "سنتعرض للهزيمة". كانت القطعة دائماً تسقط على الصورة، فكان يصيح في الجنود بكل حماس "سننتصر بالتأكيد"، فيقاتلون بحماس وشجاعة حتى يحققوا أعظم الانتصارات. مرت سنوات والجيش يحقق الانتصار تلو الآخر، لكن الامبراطور الشجاع أصابته الحمى بسبب لدغة بعوضة حقيرة، وجاءت لحظاته الأخيرة على فراش الموت، فدخل عليه ابنه ولي العهد، واقترب منه وهمس له: "يا أبي، أريد أن تعطيني تلك القطعة النقدية، وأن أعرف سرها، حتى أواصل الانتصارات العظيمة من بعدك". ابتسم الامبراطور وأخرج من جيبه القطعة

النقدية وأعطاها إلى الابن، فنظر الابن اليها، فوجد الوجه الأول صورة، وعندما قلَبها حدثت المفاجأة، وعرف سرها على الفور،-إذ كان الوجة الآخر للعملة النقدية صورة أيضاً.

في تلك اللحظة خرجت أورشينا، التي يقول صديقي عباس ان اسمها يشبه اسم صيدلية أو محل حلاقة رجالي، فسلمت عليها ماريا وسألتها :

- أين أنت؟ من زمان لم أرك.

- كنت أقف في الشباك وسمعتك تتحدثين مع البستاني. معك حق يا ماريا.. لا يجب ان نتوقع شيئاً سيئاً حتى أمام الجماد، ولو حتى بلغة الإشارة، لأن الهزيمة تتحقق فقط إن فكرتَ بها وآمنت بها وأصابك الخوف من الوقوع فيها، وهذه هي سيارة التاتا قد سمعت حديث الركاب المشؤوم فحدث لها ما حدث..

عرفت أن الأرض لن تنقلب، ولن يسقط الناس في الهاوية، وحتى لو قامت الحرب، ونام الرجال في المواضع بعيداً عنا، وحتى لو بتنا نحن وأهالينا بدون ضوء سوى نور الفوانيس المتروسة بالسخام، وحتى لو خرجت الأفاعي والتفت حول أقدامنا، أو جاءت القرود ووقفت فوق رؤوسنا. فإن الارض ستظل ثابتة.

استيقظتْ أمي فرأت الدبابات تحيط بنا من كل اتجاه، وقال الجميع في منطقتنا إن الأمريكان سيعطون خمسة دولارات في اليوم لمن يعمل كناساً في البلدية.. وبعد أيام من البدء بهذا العمل تعرفت على عباس.. كان عمري عشرة أعوام عندما التقينا قبل العيد الصغير بيوم واحد.. وفي مثل عمرنا ذاك من الصعب علينا أن نتحلى بالصبر حتى مجيء العيد من أجل ارتداء حذاء جديد أعطته لأمي زوجة خالي عدنان قبل حوالي عشرين يوماً من يوم العيد. ارتديته بالفعل، فرفعني من الأرض، وجعلني أطير كمن يمشي على الهواء.. لكن عباس أحبط فرحتي وقال:

- هسة يخرّي عليك العيد.

بقيت أكنس الطرق مدة عام كامل.. وصادف أن كان عباس معي في وجبتي.. وتعارفنا في اليوم الذي سقطت فيه الطائرة الأمريكية فوق النخلة. ذهب الجميع ليرى حطامها في شارع المطار، قرب تقاطع أبو الفلافل الحجي محمد الناصر، ورأيت الطائرة لأول مرة في حياتي، فيها مروحة عملاقة.. وذيل يشبه ذيل الجرادة.. والقصة التي تداولها الناس عن تلك الحادثة، هي أن الطيار كان في طريقه إلى قاعدة عسكرية بالقرب من بحيرة الرضوانية، وأثناء انقلاب الطائرة بالهواء كحركة دوران، لم يستطع تعديلها عن المسار

الذي هي فيه، فهوت على نخلة من نخلات شارع المطار، وقفز الطيار مع مساعده بالمظلات..

تجمهر الناس حول الطائرة لا يعلمون شيئاً عن مصير الطيارَيْن، وبالرغم من أن لا أحد قد رآهما يخرجان من الطائرة، لم يتبق إلا القليل الذي لا نعرفه عن الملازم الثاني ومساعده الطيار.. لون سرواله الداخلي أزرق، وعيونه زرقاء. وبدلته زرقاء.. متزوج.. ولديه ولدان.. وغير مختون.. أما أبو الفلافل الذي أصبح المرجع الأهم والشاهد الأول على ما حدث، فقد أفتى بأن الطائرة من النوع الأباتشي.. ولم يناقش أحد إطلاقاً معلومات بائع الفلافل عن هذا الاسم الذي نسمع به أنا وعباس للمرة الاولى.

كنا ننطلق كل يوم نرفع الأوساخ المتراكمة في شارع المأمون الذي ينتهي بمحلات سهام العبيدي. هناك قد نعثر على باكيت عصير غير مفتوح، أو حلية كذابية سقطت من معصم صاحبتها، أو عملة ورقية معلوسة مرسوم عليها ملوية سامراء.. أما أكثر ما نعثر عليه، أثناء الكنس، فهو فردات الأحذية الصغيرة التي تسقط من أرجل الأطفال الرضع المتدلية من أحضان الأمهات. وكانت مديرتنا امرأة حبابة اسمها أشذاء وتسمح لعباس بالتغيب وقت الامتحان، أو تنقله إلى الشفت المسائي. كما كانت وقت الحر تأتي لنا بالماء

البارد والكاسكيتات.. وتشتري لنا الدوندرمة أيضاً.. فنذب عنها الذباب، ونغرق في الضحك طوال الطريق.

الطريق الذي كنا نكنسه يربط بين ساحة النسور وساحة أحمد حسن البكر.. وسرعان ما اختفى تمثاله من التقاطع بعد الحرب.. كان يولي ظهره لليرموك، ويمم وجهه شطر شارع 14 رمضان.. وعباس يعرفه، وأنا لا أعرفه..

- هذا كان رئيس الجمهورية.
- قول والله.
- والله.
- ليش هو مو صدام كان رئيسنا؟
- لك يا ول سفيان مو هسة ..من زمان كان رئيسنا.. قبل صدام.
- زين ليش شالوا التمثال مالته؟
- أبوية يقول لأن الله كان لهم بالمرصاد.
- شنو يعني مرصاد؟
- ما أعرف.. يمكن يعني مصيادة.
- و هذا الرجال مات لو بعد؟
- لك إي طبعاً مات.. شنو انتو ماعدكم تلفزيون؟
- عدنا بس خربان.

- وخالك عدنان مو على أساس يجيبلكم غيره؟
- عدنان هم خربان.
- أقولك سفيان هو عدنان خالك اللح؟
- أي خالي أخو امي.
- لعد ليش هو عنده فلوس وأنتو ما عدكم؟

أمي كانت تبخرنا بعد خروج خالي عدنان من بيتنا، مع زوجته التي نطلق عليها ساخرين اسم لينا، فهي تخاف من عيونها لئلا تحسدنا، ولهذا تدور بالمبخرة في البيت، وتصبح الرائحة لا تطاق.. وأنا من شدة انزعاجي منها كنت أذهب إلى غرفة أخرى وأفتح نوافذها، أو أجلس بقرب جدتي الحجية، لأن رائحة فوطتها طيبة.. وكانت دائماً تضع ابرة الخياطة في الكيش الأسود اللماّع الذي تلفه حول رأسها. ظننت أنها ستكون موجودة بيننا دائماً، ولا تموت، ولكنها ذهبت إلى الحكيم، وظلت تذهب للحكيم، ولم تعد موجودة في الغرفة التي تطل على الشارع، وتستطيع منها اختلاس النظر إلى الزائر القادم إلينا من خلال فتحات الستائر الممزقة.. ثم تجبر أمي على تبخيرنا بمبخرتها المكية إتقاءً للحسد وقت الغروب. وفي الصباح تفلّي رؤوسنا من القمل تحت الشمس. أو تجبرنا على بلع فصوص الثوم للتخلص من الديدان التي تتراقص في أمعائنا.

[لغة سفيان في هذا الفصل تحديداً تحتاج إلى تبسيط يا أورشينا يجعله متوافقاً مع شخصيته.. فهل يتحدث سفيان بلسانك؟ وظيفتك ككاتبة تحتم عليك أن لا تكوني في مكان ليس لك.. وأن لا تحلي مكان أحد.. فيعلو صوتك فوق أصوات الشخصيات. كلمة مرجع مثلاً كبيرة على فتى بعمر سفيان أو عباس.. وهناك تصويرك الخوف من انقلاب الدنيا وحديثه عن الأفاعي والقرود فيه وعي لا يتلاءم مع فتى بمثل عمره... قضية الانتقال بين الضمائر بدأت تتسلل بطريقة لطيفة كالضوء بين السحاب.. كذلك أعجبني ظهورك العابر كأورشينا في جملة عن الأمل؟ فعلاً فأي شيء نريده أن يتحقق يجب أن نفكر به أولاً... هل تعرفين يا أورشينا بأني أفكر دائماً ما هو الأمل، وكيف يتكون الأمل؟ وإذا كنا نحن الذي نصنعه ونجعل منه قوة جبارة للتمسك بالحياة، فمن نحن؟ ولماذا يكون بعضنا متمسكاً به والآخر متمسكاً باليأس؟ هل للرفاه أو الترف أو الطعام الصحي الفاخر دور في تموين بعض حجرات الدماغ المظلمة بالأمل، وجعلها جميلة مضاءة بالأنوار.. هل يموّه علينا الاستمتاع برؤية المسرحية التي نعرف عاقبتها جيداً، ومع هذا نضحك ونغني ونشعر بالسعادة بدلاً من الشقاء، وهل هذه الخدعة هي من متطلبات الوجود منذ بدء الخليقة، وستعمل بشكل أمضى من قوة اليأس لكي لا تنخدش معجزة الحياة إذا ما اضمحل الأمل.. أليس هذا مايفسر تعاسة الفقراء بسبب نقص في الفاكهة والطعام الصحي وخشونة في العيش؟ ومن جهة أخرى أليس المفروض بالمتعلمين والأغنياء من ذوي الألباب أن يمتلكوا ما يكفي من الوعي لفهم هذه الخدعة، وبالتالي نبذ هذا الأمل أمام حياة هشة يعرفون جيداً مآلها ومحطتها الأخيرة؟ فهل هذه الخدعة جيدة، ويجب أن نتمسك بها مادمنا على وجه الأرض الواسعة، أم سيئة يجب أن نتخلى عنها لكي نوقف إرادة الحياة؟ أعتقد هذا يكفي يا أورشينا.... يجب أن أوقف جني التشاؤم الموجود في داخلي لئلا يؤدي لخسران مبين. هناك اضطراب في الزمان عندما استيقظت أم سفيان لتجد الدبابات في كل مكان.. أجده مختلفاً وله موسيقى.]

-7-

الماء والطعام

كنت في الخامسة من عمري تقريباً عندما وجد أبي نفسه لا يملك حتى ثمن البطاطا والباذنجان أيام الحصار. لم أتوقع أن تقبل أمي بما أراده منها أبي.. فهي لا تشبه باقي المكادي في شيء، ولولا الجوع لما اضطرت للتسول بدون أن تنطق بكلمة واحدة.. احتضنتها بدون يدين.. مثلما تفعل الدجاجة عندما تأكل الحَب.. وتساقطَ الدمع من عيني بدون قصد مني.. ثم أدركت أن الأم حتى لو كانت شحاذة أو وسخة الملابس أو كبيرة في السن أو بشعة سيحبها ابنها.. وستشعر بأنها أحسن امرأة في الدنيا.. شعورها هذا لم أكن أفهمه في حينها.. ولا شعوري أيضاً، فأنا أحبها دون أن أدرك انني أقدم لها شيئاً كبيراً بهذا الحب، وأنني أعز عندها من أغلى شيء، وكانت جدتي محقة في تبخيرها لنا، لأن زوجة خالي النحيفة، التي لم تنتفخ بطنها أبداً، تحسدها علينا، وتنظر إلى الأولاد على أنهم أهم شيء نملكه نحن، مع أننا لم يكن لدينا دفتر الأسواق المركزية الذي تملكه هي.. ولا كان أبي موظفاً ولا أحداً من أخوتي، وهؤلاء الصغار الذين لا تملكهم يعضهم الجوع، ولا يرون الفاكهة إلا عندما يلتقطون حبات التين والنبق من أشجار الطريق، أو عندما يذهبون خطاراً لبيتها، فيجدون لديها الطعام الكثير من تشريب لحم

الغنم، ومرق الباميـاء، إلى الـرز البريـاني والبطاطـا المقليـة الشـبيهة بالأصابع، والعروك المقلي مع الطماطة على شكل حلقات.

لينا زوجة خالي عـدنان دخلـت علينـا أيضـاً بـبعض قنفاتهـا القديمة التي يجب أن لا نطيل الجلوس عليها... بمعنى أن نتفرج عليهـا فقط، واعطتنا معهـا بعـض المنـادر أيضـاً.. فتعاونـت كـل مـن أمـي وجدتي على تبخير البيت بعد خروجها، ولم تنفع تلـك التـدابير مـن إصابتي بالحمى بعـد أن لـدغتني البعوضـة.. واسـتمرت الحمـى مـدة أسبوع كامل بسبب الفيروس الذي أسمـع للمـرة الأولى في حيـاتي.. وخفت أن أموت كما حدث لإمبراطور اليابان، وفقـط عنـدما تخـرج زوجة خالي العقيم مـن البيـت تحتضـنني أمـي، فيجـب أن لا تُظهـر أمامها كل حنانها أو محبتها لنا، فيكون حضنها مشكلة أخرى تستحق الحسد ونظرات الحقد والسوء .

مررت بذلك المحل الذي كنا نجلس قربه أنا وأمي، فغاص قلبي في بئر عميق.. عنـدما أتـذكر تلـك الأيـام أشـعر بالخجـل.. لا أحـد يعرف بما حدث لنا بعد ذلك. لم يكن عندنا ثلاجة ولا مـبردة ولا أي شيء، حتى بيتنا الذي يشبه السرداب كنا على وشك أن نخـرج منـه، لأن أبي لم يتمكن من دفـع الإيجـار.. ومدرسـتي تركتهـا.. انكسـرت يداي الاثنتان وتغيبتُ شهرين، ثم لم أعد إليها.. الشارع أيضاً لم يكن ملائماً لجلوس أمي مع طفل مكسور اليـدين.. فشـغّلَني سـائق التاتـا

محصّلاً عنده بعد أن طابت يدي.. ولم يكن صوتي عالياً، ولا كان يمكنني أن أحسب الفلوس بشكل دقيق.. أعرف أن المليون أكثر من الألف، وأن الألف أكثر من المئة، ولكني اجهل جدول الضرب، فإذا صعد عشرون راكباً والكروة ربع دينار فالنتيجة هي الضرب المبرح..

صاحب المحل الذي جلسنا قربه أنا وأمي يبيع الحلويات، اسمه رجب. وقد سمح لنا بوضع بعض باكيتات السكائر في حوض زجاجي فارغ وجدته أمي على الطريق، واجلستني قربها لكي أبيع السميط.. كل سيكارة بعشرة دنانير. وكل سميطاية بدينار. كنا نطيل الجلوس هناك، وعندما كانوا يوزعون زيت الذرة التركي في السوق المركزي.. كانت أمي تجلس هناك لتشتريه من الناس، ثم تبيعه مرة أخرى مع السكر الذي ارتفع سعره وأصبح بـــ (500) دينار للكيلو الواحد.

قال عباس:

- ما بك يا سفيان؟

- .....

- هاي شبيك..أشو صفنت؟

- .....

- هاي شبيك ساكت.. أحكي ابن النعال.

دخل سفيان حارة ثم خرج منها حتى وصل إلى زقاق بعيد، واستمر هكذا يتذكر بحثه بين البيوت عن طعام يأكله أو شيء يأخذه.. لا يشعر به أحد، حتى وصل الى بيت مفتوح بابه، وفيه بعض الأغراض في الكراج.. أخذ سفيان ينظر هنا وهناك خشية أن يراه أحد، شعر في نفسه بأن تلك الأغراض فائضة عن حاجة أهل المنزل، فتسلل إلى الكراج ثم صعد أولاً إلى القمرية.. من هناك قطف بعض عناقيد العنب لكي يأكلها. فتلقى لطمة قوية على كتفه بعد أن هبط من القمرية إلى الأرض .

تلك الأيام ذهبت، وجاءت أيام الجرك أو معجنات اللحم والعجين المغطاة بالخضرة والسمسم والسماق.. والذي نشتريه من أفران مجاورة للسيد الحليب مع مشروب بارد.. عباس عندما يريد أن يفرغ مثانته على قارعة الطريق يدعوني إلى مباراة البولة الأطول.. وإذا شعرنا بأن الأطوال متقاربة فإننا نشرب المزيد من المياه لنعيد المسابقة من جديد.. نسمع أن خباز الفرن أصابه طلق ناري.. الطيار قد قُتل.. الطبيب قد خُطف مع القاضي، ونحن لا نلقي بالاً لما يحدث، فبيبيتي الحجية كانت على قيد الحياة، وتلومنا على هذا التبذير في شراء قناني المياه المعدنية، وتقول إن ماء الحنفية ألذ طعماً لأنه قادم من دجلة مباشرة.. تلك الأيام الجميلة التي قضيناها في

كنس الشوارع انطوت أيضاً.. واستطعنا ادخار مبلغ من المال اشترينا به ماكنات لقص الثيل. واتفقنا أنا وعباس على أن تكون منطقة عملنا واحدة قرب نفق الشرطة لكي نلتقي هناك بعد الانتهاء من حدائق البيوت. سافر أخوه البعثي إلى سوريا، ثم عاد مرة أخرى من هناك.. أخي صباح أيضاً ذهب إلى سوريا، ولكنه لم يعد.. اختفت صور صدام.. وأصبحت صور رجال الدين تملأ أعمدة الكهرباء. وبعد سنوات من أيام العمل بكنس الشوارع.... اشترينا الدراجات مع موبايلات طابوقة متشابهة تماماً، واعطينا لأهلنا بعض النقود، لكن امي خبأت النقود فوق الكنتور فأكلها الفأر.

[اقترح يا أورشينا حذف العبارة الأولى من الفصل (كنت في الخامسة من عمري تقريباً عندما وجد أبي نفسه لا يملك حتى ثمن البطاطا والباذنجان أيام الحصار.)، وأن يبدأ الفصل من جملة (لم أتوقع أن تقبل أمي بما أراده منها أبي)، فتكون البداية أكثر تشويقاً... انتبهي يا أورشينا، قصة امبراطور اليابان روتها ماريا بعد سنوات من هذا التاريخ. وهنا وهناك ثمة تلاعب بالضمائر بدأت أجده جذاباً، و غير مخل بتماسك الرواية.. إلا أن إطلاق اسم عذب كاسم لينا على زوجة خاله البغيضة غير موفق حتى وإن كان متناغماً مع عدنان.. وهل سفيان عندما دخل الكراج سرق شيئاً؟.. لماذا يتلقى اللطمة إذن؟. وأسعار السميط والسكائر هل كانت هكذا في التسعينيات؟ أيضاً مباراة البولة الأطول أقترح حذفها.. لقد تبوّل سفيان أكثر من اللازم في هذه الرواية]

-8-

أغلقتْ الأيام سيرتها

أمضت ماريا الثانية (وهذا ليس اسمها الحقيقي) أغلب سنوات الحصار في صراع من أجل الصعود إلى التاتا، وجربت أنا طرقاً كثيرة لمساعدتها في الصعود، بداية من حجز المقعد الأمامي لها، ومروراً بجر يدها من بين الجموع، وحتى الإدعاء بأن الإغماء سيصيبها لكي يفسح لها الركاب المجال للصعود.. عندما وصلنا لنهاية العام تسعة وتسعين، وحتى بعد أن قال الجميع إن الدنيا ستنقلب بعد يوم.. ظل يسبّها السائق، ويضحك عليها.. منزعجاً من مظهرها الذي لا يتغير في كل يوم: حذاء واطيء، وشعر مسترسل يتخلله الشيب، وساعة في معصمها الأيسر، وتمشي على عجل. وتلتفت تبحث عني كلما تصعد إلى التاتا.

لا أعرف بالضبط لماذا يشتمها السائق؟ إنها امرأة حبابة هادئة ومسكينة.. كما أنها كانت تعطيني العيدية في العيد الصغير والعيد الكبير، وعندما أقول لها(بعدلك ربع)، تقول لي خذه فهو لك.. فهل كان شعرها المكشوف يستدعي كل هذه المسبة؟ سألت أمي عن شعرها المكشوف، فقالت لي إن الجزاء عند رب العالمين، وليس عندنا، فليولّ ويستح هذا السائق الأدبسز ويغلق فمه.. كم فرحت لكلام أمي عن تلك المرأة.. وكم كنت أشعر بالفرح عندما أراها..

أظل أبحث لها عن مقعد مريح يجاور باب التاتا في الصف الأول أو الأخير .. وابتسم لها خجلاً كلما رأيتها تضحك معي. عرفت فيما بعد أنها تدخل إلى صيدلية الشفاء وتساعد صديقتها الصيدلانية في تمشية وصفات المراجعين وتلبية طلباتهم.. ولهذا تخرج إلى عملها في المساء فقط.. السائق الأدبسز كان يقول أي نوع من النساء هذه التي تخرج من بيتها كل يوم في هذا الوقت المتأخر؟

كنا نصادفها في طريق الرجوع أحياناً.. ولكنها نادراً ما ترفع بيدها لاستيقافنا إلا في مرات قليلة.. ثم اختفت فجأة ولم تعد تصعد إلى التاتا.. جربت أن أبحث عنها أكثر من مرة.. فكرت أنها قد تخرج قبل الوقت.. أو أنها تخرج بعد الوقت.. مرة واحدة رأيتها تخرج من الصيدلية عند مرورنا قريباً منها، وخفت أن أطلب من السائق أن يتوقف... بقيت ملتفتاً أنظر اليها إلى أن صعدت سيارة برازيلية زرقاء، ثم اختفت من الطريق.. السائق أيضاً لمحها في المرآة، فتذكر كل كلامه البذيء بحقها.. أردت أن اسأله: لماذا يشتمها؟ وماذا فعلتْ له لكي يشتمها؟ كان صعباً على فتى صغير أن يقوم بهذا؟ وأي كلام أقوله سيواجهه الاستغراب، أو الإنكار أو والشتائم.

أنا لا يمكنني أن أتكلم حتى إذا سمعت بعض التعليقات، أو مد الرجل المخنث يده إلى يدي.. كان في منتصف العمر.. يملابس غامقة وشعر أسود كثيف ومصفف بعناية.. حذاؤه ممسوح ولامع،

ولكنه يتحايل من أجل أن أنزل معه من التاتا.. وكلما اقتربت منه تلك المرأة ذات الشعر المكشوف لتردعه وتعنفه يتشاغل بإصلاح خصلة من شعره ساقطة فوق جبينه الخالي من الشعر وحواجبه المحفوفة..... أستطيع أن أتذكر شكله طوال العمر.

انقلبت سيارة التاتا كما سمعت، فكنت أتذكرها كثيراً في نومي... وأتمنى أن يكون ذلك الرجل المخنث بداخلها وليس الجنود المساكين.. يظهر فجأة من زاغور خفي في السيارة.. يتحايل دائماً من أجل أن أنزل معه.. وأحياناً يتقدم باتجاه المرأة الطيبة ثم يدمدم بشيء ما.. تكون المرأة غافلة عني إلى النافذة، فيتقدم مرة أخرى باتجاهي، ويتحول إلى قط اسود ينقض علي بشعره الفاحم، فاستيقظ من النوم.

الشمس الغاربة حافاتها حمراء كالجمر.. والهمرات تملأ الشوارع.. وعلينا الرجوع من شارع السفارة الصينية إلى نفق الشرطة.. عندما وصلنا إليه، انتهبت إلى شابة جميلة أغلقت سترتها واحتمت بها من رجل سيّئ الهندام كان يقترب منها.. التفتت المرأة عنه الى اليسار، فوجدتها تنظر إلى السيارة البرازيلي الزرقاء ذات المقدمة المفعوصة قليلاً الى أمام. هذه السيارة هي نفسها التي صعدت اليها تلك المرأة السافرة التي كانت تعطيني العيدية، وتعود بها من الصيدلية وقت المساء.. صوتها الخافت أصبح يهدر كصوت

القطار عندما نهرت ذلك الرجل المهندم المخنث بقوة، وجعلته لا يصعد التاتا مرة أخرى. من المؤكد أن تلك الفتاة هي قريبة لها لأنها تشبهها وتعمل في الصيدلية نفسها. إنها لم تكف عن النظر بانزعاج الى رجل سيء الهندام هذه المرة، وتلملم سترتها ذات الكتافيات الكبيرة على نفسها.. أردت التقدم باتجاهها.. ترددت قليلاً.. تسمرت لا أدري ماذا أفعل.. وفي دقيقة التردد تلك اختفت تلك الفتاة داخل السيارة الزرقاء..

مرت سيارة أخرى، وأثارت عاصفة من الغبار حولنا... ثم انقطع الشارع تماماً من السيارات، وبعد أن أغلقت تلك المراة الجميلة باب السيارة خلفها قلبت شفتي إلى أسفل، وشعرت بالحزن لأنها ذهبت، وقلت بصوت خافت:

- ترى هل هي ابنتها؟

- هل تكلم نفسك يا سفيان؟

أخبرتُ عباس بقصة تلك المرأة السافرة التي كانت تصعد سيارة التاتا، وقد حدثت تلك القصة كلها قبل أن أعمل كناساً في البلدية، وفلاحاً في الحدائق. فسألني هل تعرف اسمها؟ قلت له كلا، قال إذن سنسميها ماريا الثانية ما دامت مكشوفة الشعر، قلت له إن الكثير من النساء كن مكشوفات الشعر في ذلك الوقت بمن فيهن المعلمات وطالبات المدارس، قال نعم هذا صحيح، ولكن

المسيحيات فقط أصبحن مكشوفات الشعر هذه الأيام، ولهذا سنسميها ماريا الثانية.. أمضت ماريا الثانية أغلب سنوات الحصار في صراع من أجل الصعود إلى التاتا، وجربت أنا طرقاً كثيرة لمساعدتها في الصعود، بداية من حجز المقعد الأمامي لها، ومرورا بجر يدها من بين الجموع، وحتى الإدعاء بأن الإغماء سيصيبها لكي يفسح لها الركاب المجال للصعود..

- أين تظنها قد ذهبت يا عباس، لسابع سنة وأنا لا أراها؟
- يجوز انتحرت.
- يعني شنو انتحرت؟
- يعني موتت نفسها.
- ليش هو الواحد يكدر يموّت نفسه؟
- اي يكدر.

[عنوان الفصل (أغلقت الأيام سيرتها)، لم أفهم ماذا يعني بالضبط يا أورشينا، فوجود فتاة يظنها سفيان ابنة إمرأة التاتا يعني أن الأيام تجدد سيرتها لا تغلقها. لا بأس أن تتركيه كما هو، لأن لا أحد ينتبه إلى العناوين الفرعية أو إلى أرقام الفصول.. الفهرست أيضاً قد يدخل في هذا الخصم المغري فاطمئني هههههه... قمت بتصويب بعض الأخطاء اللغوية موقعياً]

-10-

بابا غنوج

لم نجد أنا وعباس باباً غير باب ماريا نختبئ خلفه عندما لعلع الرصاص عشوائياً قريباً منا... عمت حالة من الفوضى العارمة والهيجان والصراخ من بعض الموجودين في الزقاق، وترددتْ أصوات انفجارات متوالية، لذلك جلسنا على الأرض، وغطينا رؤوسنا بأيدينا وملابسنا، وإذا بانفجار قوي يهزنا، وراحت الشظايا تتطاير علينا وتصيبنا ببعض الجروح، والدماء تسيل من مكان ما في رجلي. وجعفر يضحك.

أمرّ مرتين في الشهر لماريا أم يوسف.. في يوم سبت بالعادة لكي تكون في عطلة من دوامها في الكلية التي تدّرس فيها.. واستمرت هذه العادة معي حتى بعد أن تقاعدتْ من الوظيفة... صحيح أنها تصوم رمضان مع زوجها وابنها بوسف، ولديها كل الحنان لكل ما بين يديها من باقة النعناع وحتى أزرار الملابس، لكني اعتقد أن رائحتها لن تكون كرائحة أمي التي تلبس الشيلة والدشداشة، وتلبسها بألوان غامقة منذ أن وعيتُ على هذه الدنيا.. وأحياناً أجد بعض قطع العجين المتيبس عليها.. ورائحة العجين هي التي ارتبطت عندي برائحة الأم..

مر جعفر من الشارع، وقال لي:

- شعندك كاعد عالرصيف؟ شنو أم يوسف مو موجودة؟
- اي طالعة وخابرتني وقالت لي انتظرني هسة أرجع.
- وين رايحة بهالحر؟
- يمكن راحت لطبيب الأسنان.
- أشو مصلخها للرارنجة.
- آني أحب المصلخات..

جعفر يستغرقُ في الضحك لأتفه الأسباب، ويطلق قهقهاتِه العالية على أيّ شيءٍ يفعله أو يقوله أصدقاؤه حتى وإنْ كان اعتيادياً ولا يثير الضّحك إطلاقاً. هذه المرة كان جوابي مضحكاً للغاية بالنسبة له، فراح يشحّط بالضحك حتى انشخط صوته.. إذا ما أخطأ أحد أصدقائهِ يضحك عليه، وإذا ما أسقط شيئاً من يدهِ يضحك عليه. أما أكثر الأشياء إثارةً للضحك عنده فهو أنْ يتعثّر أحد أمامه بالمشْي، أو يسقط على الأرض، فعندئذٍ قد ينكفئ جعفر على نفسه، ويهتز جسمه بقوة من شدة الضَحك.

أصبحتْ صيحاته وقهقهاته هذه المرة تشبه صوت القطار. حتى أن الحاجة أم محمد الصباغ خرجت من البيت المقابل فرحانة وهي تغطي رأسها على عجل.. لعلها ظنت أن سيارة الزبل قد جاءت أخيراً. فأم محمد الصباغ لا تتحرك من مكانها إلا لسبب قاهر

كمجيء سيارة الأزبال... وبيتها أيضاً لا يتحرك من مكانه، ولا يتغير أيضاً.. باب النجاغ مخلّع، كما تقول أم يوسف.. فابنها صباغ وبنّاء أحياناً، ولديه عصبة من الصباغين والمقاولين الصغار، ولكن البيت بقي على حاله منذ أن مات الأب بعد خروجه مريضاً من الاعتقال... ماريا أم يوسف تعرف كل شيء، وذاكرتها قوية جداً، الجديدة والقديمة، وقالت لي إنها تعرف أصحاب البيوت واحداً واحداً، وشهدت انطلاق هذا الشارع، ثم ازدهار حدائقه الغناءة ثم اقتطاعها من البيوت، وتحويلها إلى مشتملات. حتى إنها تتذكر متى تحولت الأسعار من مئات الفلوس الى مئات الدنانير.. أي متى تحول سعر الصمونة من 10 فلوس إلى 100 دينار، وسعر البيت من 50 ألف دينار إلى 50 مليون دينار... حصل هذا بالتدريج، كما تقول، مع تحول الدينار العراقي من الطبع السويسري إلى الطبع المحلي، ومن ثم انحداره باستمرار أمام الدولار أثناء فترة الحصار في التسعينات، حتى انقلبت الآية، ووصل سعر الدولار الى 3000 دينار عراقي بعد أن كان سعر الدينار العراقي 3 دولارات.. تقول أم يوسف بأنها تتذكر أن سعر علبة اللبن كان بـ250 فلساً، وهي الآن بمئتين وخمسين دينار، والدجاجة بحدود 25 ديناراً، وهي الآن ثلاثة آلاف دينار، وأن سيارتها القديمة كانت بحدود 10 الاف دينار في ذلك الوقت.. و هي الآن بحدود خمسة ملايين دينار.. وهكذا هي أسعار البضائع الأخرى كاللحم والخضرة والبيض.

تهجوّل ناس هذا الشارع الجميل بعد الحرب، كما تقول، وأصبح دائخاً مترنحاً مثل أهله.. لا معايدات ولا زيارات ولا زردة ولا قيمة ولا حليب.. لا أحد ولا ماحود.. حتى الباعة الدوارة ممن يستبدلون الطحين بالبضائع البلاستيكية المعادة، لم يعودوا يدورون. وأم محمد الصباغ التي لا تخرج من بيتها، قد خرجت بسبب ضحكة جعفر المجلجلة التي ظنتها هورن سيارة الأزبال. كان الدرب قد تحول ذلك الصباح إلى مضيف في أربعينية .. عمال البناء يأكلون فطورهم ويشربون الشاي قرب هرم من الطابوق، أصدقاء ابنها محمد يجتمعون في باب البيت حول كاتلوك كبير للألوان. سفيان يغسل رأسه بماء الصوندة على رصيف ماريا أم يوسف.. بشار الميكانيكي جاء ليصلّح عطلاً في سيارة الدكتور محمد عبد الكريم طبيب المشرحة. محمد الكردي واقف بالباب مهموماً وصافناً يدخن.. حبات التمر تتساقط من عذق النخلة على فترات متباعدة مثل ناقوط الحب..تب. تب. تب. تب. تب. وجعفر مخبول العالم لا يزال يضحك، ويطلق ذلك الصوت الذي يشبه صوت هورن سيارة الأزبال، تبادلت معه أم محمد الصباغ الضحكات، وقالت وهي تكاد تبكي من طيبتها:

- إضحكْ جعفر إضحك.. منو أبو باجر؟

ذات يوم نظرت له بنت من النافذة.. فتوقف عن الكلام، وأحمر وجهه، وتحول من جعفر إلى يوسف.. وهذه المرة أيضاً مرت سيارة الخط التي تنقل بنات المدارس، وعندما نظرن إلينا، توقف جعفر عن الضحك العالي.. ولم يسمع أم أدهم وهي تناديه لكي يشتري لها خروف العيد.. تحول هو إلى خروف العيد، ثم تحولت أنا إلى حمار، وعندما تنتعش الدنيا بالبنات يصبح حتى الحمار جامداً كالتمثال، أما إذا نظرت له واحدة من البنات، فسيتحول الحمار إلى طاووس.. وماهو الطاووس؟ لا أدري .. ولكنه إذا وقف هنا سيتيه عقله عندما تمتلئ الدنيا بأصوات البنات.. ووجوه البنات، وعيون البنات، فيغرق في حلم طويل مثلي بواحدة من بنات المدارس تعيش معه في بيته.. تطهو الطعام وتهتم به، وعندما تنتهي من عملها يحضنها ويعطيها قبلة.. واحدة فقط على الرصيف، والباقي سأتخيله في الطريق إلى البيت.

بمجرد أن تختفي سيارة البنات أقول لنفسي الحمد لله أن الحدائق ليست من اختصاصات الرجال الذين لن يضحكوا معنا، ولن يخرجوا لنا الفطور والغداء والملابس الجيدة. ولن يسألوننا عن أحوال أمهاتنا وجداتنا وأهالينا، أما النساوين فكل شيء حلو موجود في قلوب وجيوب وعيون النساوين، كل شيء حنون موجود في قلوب النساوين.. ولهذا كنت أغسل رأسي بالصوندة

قرب بيت ماريا أم يوسف، وأنا مطمئن أن زوجها لن يعنفني فسيارته غير موجودة.

- همزين طلع مسافر برة.
- وين برّه؟
- ما أعرف.
- سفيان أشو الناس كلها تسافر بره.
- تالي ما تالي راح نبقى بس أنا وياك عباس.
- يا ول ليش ما تجي ويايه اليوم لبيت الصائغ..
- انت تعال ويايه لبيتنا؟
- لا ما أكدر اليوم.
- ليش مو خلصت الامتحانات؟
- اي خلصت، لكن ابويه يريدني أروح وياه للبنزين خانة.
- ماراح تطلع النتائج عاد؟
- على أساس يوم 14 تموز. يعني باجر.
- قول والله؟
- والله.

في كل لحظة يطلب عباس مني أن نقرع جرس بيت محمد ناهي أبو فرات.. وأنا أرفض ذلك لأن حتى الذبابة تخاف أن تقف على كاميرا بيت أبو فرات.. بقينا واقفين لا نعرف ماذا نفعل بعد أن

رأى عباس لايت سيارة محمد ناهي أبو فرات مشتعلاً، ثم أخذنا ندور حول السيارة ونخاف أن نقرع الجرس لكي ننبهه إلى ذلك..... ها عباس؟ هل نقرع الجـــ.....؟ غصة الخوف جعلتني أتعثر في منتصف الكلام.. الخوف قطع كلامي إلى نصفين.. تذكرت سؤالي لأخي صباح؟ الخوف زين؟ ثم تصاعد الدخان من حريق للنفايات، وظهر أبو فرات يصرخ بنا:

- إذا أشوفكم بعد هنا؟ هذه الرشاشة أفرغها بروسكم..

لنفرض أن الكاميرا قد رصدتنا، لنفرض إننا ازعجناه، فهل كان يستدعي هذا خروج أبو فرات عصبياً وهو يحمل الرشاشة، يصرخ بي وبعباس.. انتم لصوص.. ابتعدوا عن هذا المكان.. ماذا تفعلان هنا.. كاد أن يفترسنا بصراخه. فلماذا لا يستطيع النوم هذا الرجل.. إن لم يجد أحداً يتعارك معه يتعارك مع نفسه.. وأيضاً له أعداء في كل مكان أولهم جاره محمد راضي أبو زمان.. وفي كل يوم يجد تهديداً أمام بيته مع طلقة رصاص داخل ظرف ورقي. أخذته الحماوة التي انتابت الجميع، وراح يهددنا بكلمات قاسية إن لم نبتعد عن البيت والمنطقة كلها، فابتعدنا وركضنا خائفين باتجاه باب بيت ماريا أم يوسف.

استطعنا الاختباء خلف بابها قبل أن يلعلع الرصاص عشوائياً قريباً منا... عمت حالة من الفوضى العارمة والهيجان

والصراخ من بعض الموجودين في الزقاق، وترددت أصوات انفجارات متوالية، لذلك جلسنا على الأرض، وغطينا رؤوسنا بأيدينا وملابسنا، وإذا بانفجار قوي يهزنا، وراحت الشظايا تتطاير علينا وتصيبنا ببعض الجروح، والدماء تسيل من مكان ما في رجلي. حاولنا الانتقال إلى مكان أكثر أماناً، فسمعنا دوي انفجار آخر، وكأنما هو صاروخ أو قذيفة هاون وقعت بالقرب منا. عباس سمعه قوي جداً.. وسمع صوت جعفر من بعيد قبل أن يراه.. وعندما اقترب منا، كان لا زال يتلفت تحت تأثير رشاشة أبو فرات التي جعلتنا نتوهم أن معركة قد قامت بالقرب منا.. (أكيد الخوف مو زين) كما قال لي أخي صباح، لأنه أعشى عيوني وجعلني اتوهم أن بعض ماء القنينة الذي سال على ملابسي هو دماء.

الخوف منعني حتى من الضحك مع عباس وجعفر.. كان الناس قد وقفوا بأبواب البيت يتساءلون.. مابه أبو فرات.. مابه أبو فرات.. هم يعرفون مابه ونحن لا نعرف.. فأنا وعباس دخلنا هذا الزقاق بعد الحرب فقط، وأصبحنا نعمل في جميع حدائقه ما عدا حديقة واحدة هي حديقة محمد ناهي أبو فرات.. أعرض عنا وعن كل شيء حلو في هذه الدنيا.. وفي كل وقت يتعارك مع جاره محمد راضي أبو زمان من أجل شيء نجهله.. والدنيا تمتلئ بصراخه في الصباح والضحى ووقت الغداء.. ولا أنا أو عباس نعرف عن أي

شيء يتعاركان طوال الوقت... بعد حوالي نصف ساعة خرج محمد ناهي أبو فرات، واحتاج أن يدفع السيارة التي نفدت بطاريتها بسبب اشتعال ضوء اللايت لفترة طويلة.. امتنعنا أنا وعباس عن مساعدته.. واختفى جميع الحدقجية تضامناً معنا.. ما عدا المخبول جعفر الذي لم يكن معنا دائماً في ما نريد.. فذهب يدفع السيارة وحده ويضحك علينا..

عباس أصبح صامتاً صافناً بالحلم الذي يسيطر عليه... صحيح أنه ضحك من الرعب الذي شعرنا به بعد زخات من الرصاص أطلقها أبو فرات إلى الهواء، إلا أنه لم ينطق سوى بكلمات قليلة متوجهاً الى رصيف ماريا مرة أخرى.. قلت له: عباس روح غسل وجهك وراسك بالصوندة الظاهر أنت نعسان؟ فأخذ نفساً طويلاً، وظل ساكتاً، ولم يجبني.. أنا اعلم بماذا يحلم... ورأيت سراً لا يمكن أن أنساه في بيت الصائغ الذي يحرسه.. قال لي عباس يومها: ليليا إذا خُطفت سأقوم أنا بإنقاذها من عصابة الخطف.. قلت له: هاه هاه هاه! قال لي: ألا تصدقني؟ سأطلق على الخاطفين اسم الذئاب.. ويكون سباستيان هو الشرطي؟ وانا الذي سأنجد ليليا، وليس سباستيان؟ هناك أيضاً فكرة أخرى، وهي أن أجعل لليليا أيضاً اسماً مختلفاً مثل ما كنا نفعل مع أم الياس وأم الكلاب وأم البزازين.. وما هو اسمها؟، قال سيكون نوعاً من أنواع الطيور الرشيقة، قلت لعباس: هل هو السند والهند.. فقال لا لا لا.. هذا

ذيله كالمقص، ورأسه كالجرص.... إنه ليس جميلاً كليليا.. إذن هل تسميها البطة؟ قال لا لا لا هذه شكلها سمين كأجسام النساء، وليس ناعماً كأشكال البنات. تعاركنا مع بعضنا البعض.. واختلفنا حول الاسم الذي يمكن أن تستحقه ليليا. وسمعت أم عباس حديثنا، واطمأنت لكوننا لم نخرج من البيت.. وأننا سنبيت سوياً معها إذا ما تأخر الوقت ..

- تعال يا سفيان؟
- أين نذهب؟ أنا خائف منك؟ أنت صاير طكة ونص..
- لا تخف تعال معي.

وصعدنا أنا وعباس من درج جانبي إلى السطح.. قاق قاق قاق .. طار الغراب من على ناظور يسميه عباس بالتلسكوب، ويقول إن الصائغ الصابئي كان يستعمله لرؤية الكواكب والنجوم التي يعتبرها مسكناً للملائكة. إنه مغطى بالغبار، ولن نرى شيئاً من عدسته في الظلام، فتعال يا سفيان أجعلك ترى شيئاً أفضل من النجوم.. وضع مرفقيه مع ظهره على سياج السطح الواطيء، ثم قال: أنظر ماذا يوجد تحت سريري؟...ما هذا يا عباس؟ كانت هناك دمية عارية تماماً، أردت أن أمد يدي إليها، فانقض علي عباس وحملها بين يديه، ثم احتضنها وقال بأنها تعود لليليا، وقد عثر عليها في الحديقة تحت نبتة زاحفة تمشي على الأرض، فأخذها وراح يحضنها بعيداً عن عيون أمه وأبيه.. ألم أقل لك يا عباس؟.. أنت

صاير طكة ونص؟.. تركت الدنيا كلها في هذا البيت الفخم؟ وماذا أخذت؟ لعابة مصلخة؟ قال عباس: ولو كانت لدي سيارة لذهبت إلى سوريا وجئت بليليا إلى بغداد في ساعة واحدة فقط.. وعندئذٍ سأتزوجها، وسأكون سعيداً وثرياً ولدي هيبة بين الناس.. ودا أنعل أبو فرات يا بو زمان.

انفض جمع الناس يضربون كفاً بكف بعد انجلاء الضجة التي أثارها أبو فرات، فقام عباس أيضاً من مكانه على رصيف ماريا:

- لماذا تنهض؟ أين تذهب يا عباس؟

- أمي الآن تبحث عني.. يجب أن أعود إلى البيت، فما أن تغرب الشمس حتى تشعر بالقلق.

- أنا أيضاً بدات أقلق عليك هههههه..

- لويش يابه؟

- لأن كل شوية تصفن مثل المطي.

ارتفع صياحي.. وعباس لا يسمعني، ولا يهمه أمري:

- أقولك عباس.. عباااااااس.. صحيح أنت تفرش سنونك؟

- .....

- صحيح عندك فرشة اسنان ؟

- لللللللاي عندي.
- إحلف والله.
- والله.
- إحلف مرتين.

في تلك اللحظة مر هرٌّ عالي القوائم ركض في أثر هر آخر أملح اللون. أخذا يتعاركان مع بعضهما البعض بسبب اقتراب أحدهما من حدود منطقة الأخر .. ههه.. إنهما يكملان عركة (أبو فرات) مع (أبو زمان).. التفت عباس إلى أعلى، ليتأكد بأن الضوء لا زال وفيراً في السماء.. ثم لوّح لي واختفى عند منعطف الزقاق..... منذ ذلك اليوم تغير اسم محمد ناهي أبو فرات إلى العِتوي وجعفر إلى بابا غنوج... وراح الفلاحون الصغار يقهقهون حول هذا الاسماء الجديدة التي أطلقها عباس.. ويتابعون مسلسلهم الجديد عن العتوي الذي يضع النظارات الشمسية على عيونه والسيكارة في فمه وينطلق بسيارته التي دفعها له بابا غنوج...

مرت الأيام واستطعنا أن نوفر بعض المال لشراء كرة قدم من النوع الجيد، وليست بلاستيكية صلبة من جهة، و لينة جداً من جهة أخرى، بحيث تدخل بها الرِّجل إذا ضربتُها. مللنا من التسابق على الدراجات.. والركض بطائرات مصنوعة من ورق الجرايد، وشعرنا بالغيرة من محمد الصباغ وأترابه الذين نراهم كل سبت

يلعبون الدوري في الساحة الترابية الفارغة التي سيّجها الأمريكان وحولوها الى ملعب لكرة القدم.. وعندما جاء جعفر ليلعب معنا قال لي عباس:

- يا ول ليش سلمت على جعفر؟ إحنا مو متزاعلين؟

- خرب حظي نسيت.

[لحد الآن الأمر يسير الأمر بشكل مشدود يا أورشينا، الانتقال بين ضمير المتكلم وضمير الغائب أصبح مقبولاً داخل الفقرة الواحدة؟ وداخل العمود الفقري كله للرواية. الصراحة أنت تكسرين بعض التوقعات دون الحاجة إلى قلب الرواية على البطانة.. كانت الرواية عن ماريا وسفيان وعباس، وأصبحت عن مدى أوسع من السكان أستيقظ كل صباح على موعد مشوق معهم.. أجد من الممكن اختيار بعض الفقرات والتلاعب بها على الطريقة الهرمية من الأسفل إلى الأعلى.. جملة (أنا اعلم بماذا يحلم عباس، ورأيت سراً لا يمكن أن أنساه في بيت الصائغ الذي يحرسه)، يمكن تكرارها في بداية الفصل، فتكون البداية شائقة ومثيرة لفضولنا عما رآه سفيان.. أنت فعلت هذا التكرار مع باب ماريا التي اختبئ خلفها عباس وسفيان عندما لعلع الرصاص عشوائياً، وهذه حيلة جاذبة، كما انها جيدة أيضاً لزيادة عدد كلمات الرواية.. هههه.. خذي راحتك فيما يتعلق بتغيير مواقع الجمل، فالنجوم وحدها لا تغير مواضعها.. ولكن بأي شيء تلّبس سفيان و عباس؟ كيف يعاقبهم أبو فرات بزخات الرصاص على شيء بسيط كالدوران حول سيارته.. هل هو مجنون إلى هذه الدرجة؟ أيضاً انتقلت من وعي سفيان إلى الراوي العليم في هذه الجملة (وسمعت أم عباس ضحكنا، واطمأنت لكوننا لم نخرج من البيت، وأننا سنبيت سوياً معها إذا ما تأخر الوقت) فمن الذي يتحدث؟ هل هو الراوي العليم الفهيم لعنة الله عليه.. هناك جملة أخرى وقعت في المأزق نفسه (التفت عباس إلى أعلى، ليتأكد بأن الضوء لا زال وفيراً في السماء).. كيف دخل سفيان إلى وعي عباس وعرف ما يفكر به؟ ليس هناك سبيل إلى وعي الآخرين إلا من خلال بعض مفردات قليلة كريما، ولعل، وعلى

الأرجح، من المحتمل، وكأنه....إلخ.... وماذا عن ماريا؟ هل جعلتها تتزوج من عبد الملك المسلم للتعبير عن الحياة السعيدة والوضع المثالي؟؟؟.. نحن لسنا في حفلة خيرية، وأجد هذه الثنائية مستفزة للتسامح ولمنطق الأمور عزيزتي، لأن عكسها غير موجود إلا في المشمش.. فيما يتعلق بالانتقالات في ضمير الراوي .. كانت الصورة واضحة في ذهنك أنت، وأصبحت مقنعة وواضحة في ذهن القارئ أيضاً.. وبدت الفصول الحالية معبرة عن وعي سفيان لأنها مروية بلسانه.. أحببت تذكره لإمرأة التاتا أو ماريا الثانية، وكلامه البسيط عن النساوين وقلوب النساوين... نظرية حقيقية كما أظن. على أن يتحمل الفلاحون الصغار بالطبع نقنقات النساء المستمرة حول الكنس والرش وآثار الخرابيط التي يطمطموها بين الأشجار.. أرجو التأكد من المعلومات عن الدينار العراقي والتضخم الذي حدث في الأسعار... ليتك تتوسعين قليلاً حول علاقة الصابئة المندائيين الوثيقة بالطالع والأفلاك والنجوم.. لديهم الكثير من العلم في هذا المجال.. ويعتقدون بأن لكلٍّ كوكبٍ أو برجٍ أو قمرٍ تأثيراً على سيرة الناس المتعلّقين به... انا أقوم بتصحيح الأخطاء لغوياً وإملائياً أينما وجدت، ما عدا رقم هذا الفصل، فهو يحمل الرقم10، والمفروض أنه يحمل الرقم 9، هل قمتِ يا أورشينا بحذف فصلٍ بأكمله وغفلتِ عن الرقم؟، هل الحذف تم بالمغرفة بدلاً من الملعقة؟ هههههه سأترك الأرقام لكي تتدبري أنت أمرها بعد المراجعة النهائية]

-11-

بين البساتين

فجأة سمعت أصوات بنات.. ولم أعد اشعر بالرغبة في شرب الماء. بقيت واقفاً أنتظر نزول الفتيات الثلاث من السيارة. تأخرت الثالثة في النزول، فقالت لها خالتها ماريا:

- أين أنت يا أنهار؟ هيا انزلي؟ ولنعلق زينة عيد ميلادك؟

- .....

تأخرتْ أنهار في النزول.. لا أدري لماذا.. توقفت أنا عن العمل، ولم انتبه إلا لماريا أم يوسف وهي تقول لي:

- هاك اشرب سينالكو يا سفيان.

- ما أريد سينالكو ؟

- انت مو تحب السينالكو.

- ما أريد.. شكراً..

لاحظت أم يوسف أدبي وهدوئي.. فالتفتت عني باستغراب، وقد ظنتني ميتاً كذلك الميت الذي حملته عربانة أبو النفط مضروباً بطلقة في بطنه، كانت العربة تركض بسرعة كبيرة فينسكب النفط من الحنفية على أسفلت الشارع ولا أحد يعرف ماذا حدث.. مثل هذه

الحوادث أصبحت تتكرر كل يوم حتى اعتدنا عليها.. مضت أم يوسف الى داخل البيت تحمل بعض أكياس العصائر والمثلجات.. يبدوأنها لم تقلع سنها، لأنها كانت في حال جيدة.. والورم قد اختفى من خدودها، وعندما دخلتْ المطبخ رأيتُ أنهار تنظر الى نفسها في المرآة.. أم يوسف سحبت الستارة فور دخولها لتجعل الضوء الساطع يطرد ظلام الغرفة مع فتح الستارة، فأصبحتُ أرى المطبخ كله.. لا زلت واقفاً لا استطيع العودة للعمل.. أنهار هذه حاتة جداً، ولا تحتاج إلى أن تنظر إلى نفسها في المرآة أو تعدل شيئاً.. إنها جميلة جداً.. وعيونها خضراء كالحشيش... ولكن يبدو أنها تبحث عن فردة قرطها التي سقطت منها أثناء النزول من السيارة..

تأخرتُ في عملي كثيراً ذلك اليوم.. انتظرتُ أن تخرج أنهار أو واحدة من أخواتها من البيت.. ولكني متأكد أنهن سينتهين إلى الذوبان إذا ما خرجن إلى هذا الحر الشديد، وأنهن هناك في البيت المبرد جيداً ينعمن برائحة الهواء البارد ويعلقن الزينات ولا يعرفن شيئاً عن سفيان الذي لن يذهب هذا اليوم حتى تنغلق الستارة مع ارتفاع شمس الظهيرة الحامية.

أغلقتْ الستارة اخيراً، ومضيت والأجرة في يدي أفكر بأنهار.. كيف تحملت العطش من أجلها، لماذا حدث لي ما حدث عندما رأيتها؟.. شعرها الطويل يصل إلى وركها، وعيونها تشبه

الخرز.. صورتها في المرآة جعلت عنقي مشرئباً طوال المسافة بين بداية شعرها ونهايته.. أعطتني ام يوسف الأجرة.. ولم تعطني الملابس كعادتها، وكأنها أرادت ان لا تحرجني.... فقط أعطتني قنينة مياه معدنية باردة جداً.. فرأيت كفها البيضاء ملطخة ببقع سمراء تشبه النقاط المتشرة على قشرة البيض النيء. أفكار وانهار وأسرار هن بنات أختها.. وعباس يقول إن أمها مسيحية.

- ماذا تفعل ياسفيان؟ لماذا تشغب من الحنفية؟ صدك جذب تحكي .. لعد ليش ما أخذت السينالكو؟

انطلقت بدراجتي إلى البيت لا أشعر بالشمس الحامية.. فكرت طوال الطريق بأنهار، وعدد القبلات التي سأحصل عليها منها وأنا أحضنها في المطبخ.. كان العدد أكبر بكثير من عدد قبلات بنت المدرسة قبل أيام.. ومن كل واحدة منهما سأحصل أيضاً على قبلتين في الحمام.. ولأن الحمام في بيتنا هو عبارة عن حنفية وطاسة ترقص فوق ماء الكُجة، فقد كنا نتبادل قبلاتنا تحت دوش شبيه بالدوش الذي يأخذه يوسف كلما عاد من المدرسة.. أمه هي التي تطلب منه أن يأخذ الدوش أول دخوله إلى البيت. ولكني لم أر هذا الدوش ولا مرة واحدة.

ماريا أم يوسف جاءت إلى بيتنا عندما ذهبتْ لكلية الطب البيطري من أجل أخذ متعلقاتها بعد تقاعدها.. انقطع الطريق فجأة

بسبب حدوث انفجار تلته ضجة اطلاقات نارية قرب خان الشيخ ضاري.. قيل إن هناك صحفية مشهورة قد قتلت في سامراء بعد تفجير المرقد العسكري.. وأثناء التشييع خرج للمشيعين بعض المسلحين ليمنعوهم من الوصول الى المقبرة.. اتصلت بي أم يوسف بالموبايل، وطلبت مني المجيء لنجدتها.. بيتنا يقع هناك قريباً من خان الشيخ ضاري.. في المناطق التي تحيطها البساتين بعد كلية الطب البيطري.. ومثل الطلقة هرعت إليها بدراجتي وطلبتُ منها أن تتبعني الى البيت.. وكنت أنا أطير فوق الأرض بدراجتي، وأم يوسف تسير خلفي، وتشعر بالأمان لأني أقودها إلى بيتي. كأنني أسمع جميع الاطفال يقولون:

- هل هذا سفيان؟ من معه؟
- حقاً من معه؟
- هيا فلنره.
- هيا.
- هيا.
- هيييييييه.

المظاهرة التي وصلتْ خلفي الى البيت جعلتني أشعر بما معنى أن أكون مهماً أو غنياً أو رئيساً للجمهورية.. الأطفال يتصايحون.. هيييييييه.. وأنا أشق دربي بصعوبة شديدة.. وأمي طارت من

الفرح، وتعثرت بعتبة الباب لرؤية واحدة من زبوناتي تنزل من سيارتها قرب بابنا.. سيارتها تحولت إلى عربة من عربات العيد يصعد عليها الأطفال وينزلون.. الغرابة ليست في السيارة، ولكن في أن تقودها امرأة بيضاء الشعر.. أحاط بها الأطفال كساحرة من ساحرات الأفلام، وكانت سيارتها البيضاء مستهدفة لهذا الغرض. وكانت وكانت وكانت. أم يوسف تجلس عندنا تنتظر انفضاض المعركة، وخديجة تأتي لها بكل ما يوجد في المطبخ من لبن وقشطة وكعك.. وجاءت لها أيضاً من الحوش بأخي محمود أو حمودي الذي لا يستطيع المشي ولا الكلام.. منغولي.. كنت أسأل أمي:

- يوم شنو يعني منغولي؟

- يعني معوق..

خديجة أصغر منه، ولكن هي التي تحمله، وتتابع شؤونه.. قالت أم يوسف لأمي.. لماذا تضع خديجة هذا البخنق على رأسها؟.. دعيها تعيش طفولتها بسعادة وهناء، وهي الفترة الوحيدة من حياتها التي تعيشها بلا هموم ولا مشاكل ولا منغصات.. فلماذا تحرميها من طفولتها؟.. ثم انحنت على خديجة، وقبلتها وقالت لها:

- أين ظفائغ البنات الجميلة؟؟ أين القغديلات البيضاء والقغاصات الملونة؟

t.me/read4lead

أم يوسف لا تدري أن خديجة تكوي عشرة قمصان في اليوم الواحد يبعثها لها صاحب اللوندري الجديد مقابل ربع دينار لكل قميص.. وأن رائحتها تصبح كالخل عندما يتصبب العرق الغزير منها.. ضحكنا جميعاً على ما قالته ضيفتنا أم يوسف، وخجلتْ خدوجة لأنها كبرت على مثل هذه القراصات والقرديلات... وفي اليوم التالي عدت إلى البيت وأنا أحمل الستارة الجديدة وكيس القراصات..

حملتها خديجة الى غرفة أمي، وهناك حبست نفسها.. تأخرت طويلاً هناك وتركت حمودي وحده، ونادت عليها أمي أكثر من مرة لكي تأتي وتنظف حمودي من أوساخه. بعد أن خرجت لم تكن القراصات في شعرها، ولكن في يدها. مع تعبير غريب على وجهها، وأنا بقيت أتلفت إليها كل حين وأجدها تضحك مع نفسها.. ذهبت خديجة للنوم وهي تضحك.. تملكها شعور غامر بالفرحة.. حتى في صباح الأيام التالية كانت خديجة لا تزال تضحك.. وأنا أيضاً كنت فرحاً لفرحها بالقراصات.. إنها صغيرة وملونة وتحوم فوق رأسها كالذباب. وحمودي أصبح يدور حول نفسه من هذه الفرحة التي حلت بالبيت بدون مقدمات.. وأتذكر ذلك اليوم جيداً، لأني شعرت بأني طرف فيما تحقق: مجموعة ملونة من القراصات لأختي خديجة، مع وجبة رز وفاصولياء لحبها أكثر من أي طعام آخر، وستائر جميلة معلقة في الغرفة التي أصبحت جميلة للغاية.

قال أخي صباح إنه سيذهب إلى مصر ومن هناك يهاجر الى المانيا.. أصبحت أشعر بالضيق عند الاستيقاظ الصباحي، وعندما أتذكر أخي صباح أعرف السبب..

- اشو بزمن صدام ما كان اكو قاتل ومقتول؟
- لان الناس كانت تخاف.
- لعد الخوف زين؟
- لا مو زين.

كنا نهرع لسؤاله عن أي شيء.. ونطلب مساعدته في كل شيء.. فهو يقرأ الكثير من الكتب، ويحل لنا الكثير من المشاكل، ويعمل في منظمة الحزب، فماذا نفعل إذا لم يعد صباح موجوداً ليروي لنا ما يعرفه عن كل اسم قديم ومكان قديم.. في زمانه والزمان القديم؟ أمي تقول بأنها لم تعد تفكر باختفاء المسنين والعجائز من أهلنا، فجدتي الحجية عمرت حتى التسعين من العمر، والشباب هم الذين يواصلون الاختفاء، سواء بالخطف أو القتل أو السفر إلى برّه.

سكبت أمي الماء المغلي على حوض الأواني وطلبت من الملائكة أن يضعوا الطوس فوق رؤوسهم اتقاء للماء الحار، ثم هبت فزعة لتلتقط طرحتها، وتلفها حول رأسها بعد أن سمعت جرس الباب.. تلفّتُ حولي لأبحث عمن سيختفي من أخوتي عندما يقرع الجرس.. لم أجد أحداً تبقى سوى أخي محمود المنغولي.. بعد قليل

كانت أمي تغلق الباب، وتعود إلى الهول حاملة طبق الهريسة من الجيران.

جاءت ليلة القدر، وهبطت الملائكة من السماء إلى الأرض مرة أخرى. قلت لأمي هل هم أنفسهم الذين ينزلون إلى السنك، فتحذريهم عندما تسكب أمي الماء الحار؟.. ضحكت و قالت:

- لا . هذوله نازلين شبعانين وشاربين مي.

[صباح قلت عنه في فصل سابق يا أورشينا على لسان سفيان إنه سافر إلى سوريا وليس إلى مصر.. أرجو الانتباه إلى ذلك، كما أن تحذير الملائكة من سكب الماء المغلي فيه تناص مع رواية أخرى.. هل يتحدث سفيان عن الخوف بلسانك أنت؟ أرجو الانتباه إلى ذلك أيضاً.. كما قال إن سيارتها مستهدفة، وهذه مفردة لا تلائم وعيه.. أرجو التحايل على كلمة منغولي إذا ما وردت في السرد، حتى وإن جاءت على لسان سفيان. كأن تقولي: يُقال إنه منغولي.. أسماء مثل أشذاء وأنهار وأسرار غير مألوفة.. من أين تأتين بهذه الأسماء الغريبة هههه..... هل في هذا محاكاة مع الأسماء الغريبة لك ولأختيك؟!!!! شدني الأسلوب السينمائي في مسيرة ماريا مع سفيان إلى بيته.. كما لاحظت بأن هذا النسق البصري أو المشهدي موجود في باقي فصول الرواية.

-12-

ابنة الصائغ

كان أبي على قيد الحياة في ذلك الوقت.. يعمل خبازاً في فرن الرافدين للصمون.. ويقف طويلاً أمام النار بالرغم من أنه ليس قوياً بما فيه الكفاية، ويمرض كثيراً بسبب علة في بطنه.. لم تعد بطنه تؤلمه لأنه انقتل في سيطرة وهمية بعد العام الثالث للحرب،

أما عثمان أخي الأوسط فاعتُقل في عملية تفتيش جرت في منطقتنا.. لطمت أمي على رأسها، وحذرتني من أن أخبر أحداً باسمي بعد ذلك اليوم.. وأم عباس فعلت نفس الشيء مع ابنها.. ولم نعد نلتقي في حي الجامعة الذي خلا من أهله، وهجم عليه المهجّرون السُّنة من منطقة الحرية، مثلما هج المهجّرون الشيعة من حي الجامعة إلى منطقتي الشعلة والسيدية. وكان من بينهم الأستاذ محمد مدرس الرياضيات والدكتورة أم محمد صاحبة الصيدلية.. لم يجعلنا ذلك نقلّل من خروجنا اليومي.. لا زلنا لا نبالي بما نسمع من أخبار الحرب.. كل الأيام أصبحت تبدو وكأنها يوم جمعة.. لا آن ولا ودان.. فقط كنا نعود باكرين وتكون الساعة الثانية ظهراً هي الموعد النهائي للرجوع إذا اردنا النجاة بأنفسنا من المخاطر.

المخاطر كانت كثيرة، والأخبار سيئة.. طيارون يُقتلون، وأطباء يُخطفون، وفنانون يتركون البلد.. وأبو عباس المسكين لا يجد النفط في المحطة، وأخي صباح لم يعد بحوزته جواب لأي سؤال.. لم تعد لديه طاقة على الكلام.... لا أنسى الرائحة التي امتلأ بها البيت بعد مقتل أبي، ولا كيف توارى أخي عثمان عن الأنظار، ثم أخي صباح، ثم كل البعثيين من منطقتنا.. تكومت الأشياء فوق بعضها البعض.. وانقلبت الدنيا... وحتى جعفر المخبول ايضاً كاد أن يُقتل مع عباس، وهي الذكرى الوحيدة التي تجعل وجه جعفر يدلهم.. ولهذا لا تقبل أم عباس لابنها أن يتأخر أبداً. شايف عباس شلون هوسة ولعبان نفس؟

- ما تعرف سفيان أبوك ليش انقتل؟
- يمكن علمود اسمه.
- همزين أبويه اسمي محّنا.
- محنا؟ شنو يعني محّنا؟
- إجا للدنيا شعره أحمر فسموه محّنا.
- لعد أنت مو قلت انضرب طلقة برجله؟
- هذه كانت طلقة تايهة من عركة صارت بالشارع.

ولا شيء من تلك الأخبار كانت تهم محمد (أبو فرات) الذي كان يتعارك مع جاره (أبو زمان) كل يوم تقريباً.. وعندما سقطت

كرة القدم في حديقته لم يتجرأ أحد منا لكي يذهب ليحضرها، ما عدا جعفر المخبول الذي تصالحنا معه، فضحينا به، وأرسلناه إلى بيت العتوي.. دخل فوجد الكرة، كما قال، قد سقطت على اخدود في السياج الفاصل بين بيتي (أبو فرات) و(أبو زمان).. تسببت الكرة في مشكلة كبيرة.. فقد وجدها محمد أبو فرات حجة جديدة لكي يتعارك مع جاره محمد أبو زمان، ففهمنا أنا وعباس كل شيء للمرة الاولى:

- ماهو جوابك؟

محمد أبو زمان لم يرد.. كان صامتاً تماماً.. سأله محمد أبو فرات مرة أخرى بصوت أعلى.. ولم يرد أبو زمان.. فقط ضحك وحرك رأسه يميناً وشمالاً وهو لا ينطق كلمة واحدة... صمته كان مزعجاً هو الآخر.. بل أكثر إزعاجاً من صراخ أبو فرات.. كان كل منهما زعلاناً ويريد أن يبقى زعلاناً. يريد أن يزعج جاره وأن لا يسمعه بل يسمع نفسه فقط.. فهمت، من تدخل الجيران، بأنهما منذ سبع سنوات يتعاركان على متر واحد من الأرض بين بيتيهما.. لا يتذكران شيئاً من البيت سوى هذا المتر الواحد.. لا توجد أية تفاصيل أخرى تهمهم سوى هذا المتر الواحد.. ما ذنبنا نحن.. ظلت كرتنا معلقة فوق السياج حتى تنتهي المعركة... وعندما وجدناها بلا نهاية ، صفّر الحكم بفمه معلناً انتهاء المباراة، وانطلقنا على

الدراجات لنلتحق بباقي اترابنا لجوب كل امتار الأرض المفلوحة التي تخصنا وتعط منهم رائحة أشجار الحدائق.... ثلاثة أعوام بعد الحرب ونحن نذهب ونجيء لا ينقصنا شيء.. حتى الفقر لا يهمنا أو يشقينا.. صحبتنا هي الأقوى من كل شيء.. نتفرق إلى أعمالنا وكأن الحرب غير موجودة، بل أن جعفر أصبح يطلق ضحكته الغريبة على طريقة ممثل جديد اسمه أبو حنج.. أو لربما أبو علج.. وكلما يرى طالبات المدارس يمشين في الشارع، يصيح جعفر مخبول العالم: إنياااااااااااه... فننسى كل شيء ونغرق في الضحك...

عباس نجح، وأصبح في الصف الثالث المتوسط.. ووضع مرآة صغيرة على مقود البايسكل مع بعض الزينات على التاير الخلفي.. وجرس معدني له رنين (يزرف) الأذن. ضجرنا من حبسة البيت.. فبعد الثالثة ظهراً لا يخرج شاب من بيته.. وإذا كان خارج البيت فيجب أن يعود في الخامسة عصراً كأقصى حد.. القتل والخطف في كل مكان، بل نشبت بعض المعارك في الطارمية والدورة وشارع حيفا.. الله يسترنا.. تُردّد أمي على الدوام.. الله يسترنا.. الله يسترنا.. ولكنه سيستر من ومن ومن؟ هم الذين يتقاتلون فيما بينهم فماذا يفعل لهم؟... وكيف يسترهم جميعاً؟... يطبهم مرض.

الطريق السريع أيضاً أصبح خطراً للغاية، وفيه انقتل محمد السبع زوج أم حسام، لأنه كان ضابطاً في الجيش السابق، مع هذا

فكرنا أن نلتقي هناك أنا وعباس وقت الظهر بعد الغداء، فنحن لم نكن من فدائيي صدام، ولا ضباطاً في الجيش السابق، ولا من المعقول أن يظنونا من أبناء المسؤولين الجدد.. غافلتُ أمي وخرجت... الطريق وقت الظهيرة لا يوحي بأي خطر ممكن حدوثه.. ومن بعيد رأيت عباس يضع نظارة شمسية على عينيه..

- هههههه هاي منين لك يا ول؟

- أبو البيت لما سافر إنطانا كومة غراض.

- شنطاك بعد؟

- هدوم وساعة وكومة مسبحات ومحابس. جبتلك مسبحة ومحبس.

- شكد حلوة المسبحة.. راح انطيها لأمي.

- والمحبس؟

- أضمّه بالقاصة.

- وجبتلك مراية هم للبايسكل.

- أحلف والله.

- والله؟

- وينها.

- هيانها .. بس حرامات الكاميرا نسيتها بالبيت.. تجي وياية تشوفها ونطكطك صور.

- أمي ما تدري أنا طالع من البيت.

- يلّه يا معود تعال.

- لا.. ما أجي.

- الله يخليك تعال. حتى أرويك صورة ليليا ابنة الصائغ.

- زين لا تبجي.. راح أجي وياك، بس عباس تره لازم أرجع قبل الخمسة.

- دير بالك تقول اسم عباس.

- لا ما أقول.. وأنت هم لا تقول لأحد اسمي سفيان؟

- لا ما أقول.

- أقولك عباس هو شنو يعني سفيان؟

- شمدريني؟

- يمكن اسم أخو صدام.

- لا ياول أخوه اسمه عدنان مو سفيان.

- لك لا .. عدنان ابن خاله.. وسفيان ... يمكن اسم ابنه الثاني؟

- يا ول هاي شبيك؟.. ابنه الثاني اسمه قصي، وانقتل هو وعدي بالحرب... شنو إنت ما تشوف تلفزيون؟

- مو قلت لك التلفزيون خربان.

- ما يصلحه خالك عدنان؟

- مو قلت لك هو هم خربان.

- تره آني بعدني ما مقتنع أن عدنان هو خالك اللح.

- طبك مرض لا تقتنع.

-13-

راقصة باليه

ما حدث قد حدث.. سفيان على دراجته مع رفيقه عباس على الطريق السريع الذي تكسرت حواجزه الحديثة، أو اختفت من أماكنها أيام الفرهود.. كان عباس ناجحاً في الامتحان ومنطلقاً إلى أبعد الحدود.. وجعله ذلك يجرب أن ينادي رفيقه سفيان بأسماء مختلفة.. كوتي.. أوتي.. لوتي.. فيعترض عليه سفيان، ويرد بأسماء أخرى كطنبور وهرهور وأبو قنبورة.. تلك الأسماء الأخرى ترددت مع الضحك العالي فوق دراجتين مسرعتين للغاية والبيوت تتراجع من خلفهما مع الجامع أيضاً.. لا أحد يقف في أبواب البيوت. أكثرها مهجورة وحدائقها يابسة.. وعندما كانا يمران فيها قبل الحرب يجدانها زاهية بالألوان والخضرة.. اما الآن فهي صامتة وصافنة، وكأنها قد سقطت في الامتحان.. هناك سيارات جمسي تشد الرحال إلى بلاد الله الواسعة هجيجاً من بغداد وانفجاراتها وأنقاضها وأخبارها الحزينة. ماريا أم يوسف تتحدث عن ذلك دائماً.. ولا تزال تأمل خيراً لكي لا تسافر..

- ماذا تنتظرين؟

- انتظرْ أن تهدأ الأوضاع يا عبد الملك .

تقول لزوجها بالموبايل. وتصرّ على أن الهدوء سيأتي بعد فترة، وإذا لم تهدأ الأوضاع ستنتظر أن ينتهي يوسف من امتحانات البكالوريا، ثم تأخذه وتسافر إلى مصر. تقول لجارتها أم محمد الصباغ: دخلنا السنة الرابعة من الحرب، ولا نرى غير صبات الكونكريت، ولا نسمع بغير الخطط الأمنية المتتالية، ولكن بلا فائدة ولا نظافة ولا عمران... يدافع عباس قليلاً عن الحكومة، ويقول إنهم ينتظرون هدوء الأوضاع واستقرارها، ثم بعد ذلك يلتفتوا إلى إعمار هذا الخراب.

بيته تحت جسر العدل كان عبارة عن سقيفة مقتطعة من حديقة بيت الصائغ الذي سافر إلى سوريا، وجعلهم يسكنون في تلك السقيفة لحراسته.. البيت كان كبيراً جداً وفيه بالكونات ومشتمل يقع خلف الكراج.. دخلنا من بابه إلى الحديقة فاستقبلتنا أم عباس بالتعنيف، وطلبت مني الاسراع في العودة الى البيت.. فطلب منها عباس التقاط الصورة لنا أولاً.. أمسكت أم عباس بالكاميرا وهي خائفة بحيث انتقل خوفها إلى الصورة فارتجفت ثم مسحناها... دخلتْ أم عباس ظناً منها إنني سأعود بعد قليل إلى البيت.. ولكن عباس ظل يلتقط لنا أكثر من صورة حتى ارتفع اذان العصر من الجامع القريب.. فقال سفيان لعباس وهو يلكمه:

- اقولك يا ول شنو كوتي. قابل اني بزونة..

- زين لعد شعندك بعد من الأسامي؟

راح أسميك نوري وأسمي نفسي نوري؟ حتى لا تضربني بوري ولا أضربك بوري.

ضحك سفيان ثم صمت قليلاً يفكر باسماء اخرى يرد بها على عباس.. طال صمته حتى انتهى المؤذن من أذان العصر.. فقال:

ليش ما تسمي نفسك أحمد.. وآني راح اسمي نفسي محمود.

عندي فكرة أحسن.. ليش مو اثيناتنا تصير أسامينا محمد.

فكرة ذهب يا عباس. محمد صديق محمد. اتفقا على ذلك.. وكانت الشمس توشك على الغروب، عندما ظهرت أم عباس في الصورة الاخيرة، وهي تقف أمام تنورها المبني في زاوية حديقة بيت الصايغ، الصورة يستطيعان رؤيتها على الكاميرا، وخلفها تظهر كومة أغصان الرانج الخضراء التي قصقصها سفيان، وأعطاها لعباس قبل أيام، وقد تحولت إلى حطب يابس.

- اشو عربانة ابوك ماكو؟

- راح يجيب نفط من البنزينخانة.

- يله عاد خلي أرجع.

خلع عباس نظارته الشمسية لمسح العرق حول عينيه، ثم أعادها الى وجهه بعدَ أن التقط رغيف خبز من طبق الخوص الذي

كان موضوعا على الأرض.. قبل أن نخرج توقف عباس عند النافذة وقال لي:

- تعال سفيان تفرج على بيت الصايغ.

- سفيان؟

- قصدي تعال محمد تفرج على بيت الصايغ.

من فتحة صغيرة في الستارة رأيت صوراً كثيرة موضوعة على الجدران.. كانت القنفات مغطاة بالشراشف.. تحرك أحدها قليلاً بفعل هواء ضعيف.

- هل توجد نافذة مفتوحة في البيت؟

- البيت مغلق منذ عامين. ونحن نسكن في المشتمل والحديقة، ولا ندخل إليه.

- راحوا كلهم؟

- اي كلهم راحوا.

- وين راحوا؟

- سافروا برّه. دتشوف ذيك البنية شكد حلوة..

- اي داشوفها. هاي منو؟

- هاي ليليا بنت أبو البيت.

- احلف والله.

- والله.

- أشو مصلخة.

- لك هاي مو مصلخة هاي دترقص باليه..

- راقصة؟

- يا ول مو راقصة.. هاي شبيك.. انتو ليش ما تصلّحون تلفزيونكم.. هذه ترقص باليه، يعني تطير بالها مثل الحمامة.. لو تشوفها شلون حلوة.. تشبه اللّعابة..

- وانت شلون ما قايلي على هذي الصورة من قبل؟

- وليش أقولك عليها يابه.. هاي مالتي .

- آيباه! على أساس هي راح تباوع عليك..

شعر سفيان قليلاً بالضيق، وأراد أن يُبدي لعباس أنه يمتلك أيضاً شيئاً جميلاً مثل ليليا (مالت) عباس.. لديه الحلية الذهبية التي وجدها في بيت ماريا أم يوسف.. فأخرجها لعباس، وقال:

- شوف ماذا لقيت في حديقة بيت أم يوسف؟

- هذا قرط بنات؟

- نعم، إنه قرط أنهار.

- أنهار شنو.. هههه؟

- لك هاي بنت أختها لماريا أم يوسف. و(أنهار) لما أشوفها.

ضحك الإثنان بقوة، فقال سفيان:

- هذي تراجيها.. فردة معي وفردة معها.

- خليني أشوفها.. هل هي ذهب؟

- وانت شمعرفك بالذهب؟

- يا ول تره إذا ذهب لازم ترجّعها.

- يابه دطير.. ليش أرجعها؟

- لأن حرام.

- شوف منو ديحكي.. إنت مو وصاك محمد فد يوم تشتريله السماد، وحسبته بتلاث أضعاف.

- أي واحد منهم.. الصباغ أو الكردي أو أبو أدهم أو أبو المشرحة أو العطار أو استاذ الرياضيات أو السكوتي أبو زمان أو العتوي أبو فرات أو الشيخ محمد؟

- وشنو الفرق؟.. أي واحد بيهم حرام؟

- لا مو أي واحد.. الشيخ محمد شايف نفسه رب العالمين، ويقول على الصائغ الحباب هذا كافر؟

- ميخالف هم حرام.

- آني ما مقتنع..

- لا تقتنع.. يطبّك مرض.

تأخرنا كثيراً خلف البيت، بسبب صورة ليليا.. ثم خرجنا ولا تدري أم عباس بذلك.. دائماً تظن بأني سأبيت عندهم إذا ما

دخل الغروب وتأخر الوقت... الوقت قد تاخر ، وتوجهنا إلى باب البيت دون أن تشعر بنا.. وقبل الغروب انطلقنا مرة أخرى على دراجاتنا. محمد ومحمد هذه المرة.. لا نوري ولا كوتي.. لا عباس ولا سفيان.. وفي الطريق كان أذان المغرب قد ارتفع من جامع أم المعارك الذي أصبح اسمه جامع أم القرى.. ولم تكن الشوارع مهجورة بعد، ولكنها كانت خالية من أصحاب الدراجات أو الشباب.. لا أحد يسير بمفرده في مثل هذا الوقت المتأخر.. وأم عباس تظن أننا لا زلنا في البيت.

من بعيد لاحت لنا سيطرة يقف بها رجلان فقط.. عندما اقتربنا منها قال لي عباس:

- أقولك محمد، أشو هاي السيطرة ما كانت موجودة لما أجينا.

-14-

أين هم؟

لم يمر سفيان في شارعنا منذ أيام.. وهذا لم يحدث معه من قبل.. ذهبت لجارتي أم أدهم أسألها عنه فكان الباب موصداً.. والجرس عاطلاً.. استغرب كيف تبادلت معي وصفة بذور الكتان لمسح التجاعيد، وهي على هذه الدرجة من الرزانة والانعزال.. كنت أظنها لئيمة في رصانتها.. فهي كتومة وكل حركة تقوم بها هي من أجل هدف معين، وفي بعض الحالات أجد تصرفاتها غير مفهومة، وأغربها على الاطلاق أن تقتني قطاً سميناً رزيناً مثلها.. لا يمكن طرده بسهولة، وأن تستعين بجعفر أحياناً من أجل تشذيب حديقتها على الحركة البطيئة التي تثير الأعصاب.. القط تاتلي موجود وينظر لي من خلف النافذة، مما يعني أنها موجودة في البيت.. ذهبت إليها بعد صلاة العصر، فوجدتها تفتح الباب بدون أن أقرع الجرس لأنها رأتني وهي تسقي أشجار الحديقة.

- أم أدهم، جعفر ابن عم سفيان هل يأتي لتنظيف حديقتك؟

- لا والله أم يوسف هو هم بطل يجي.. الوضع كلش موزين.. والكل هجّوا. مدتشوفين شارعنا يصفر.. لا أحد ولا ماحود.

- يمكن بس أنا وانت بقينا بالشارع.

- كل البيوت اللي بصفي فرغت.. من بيت أبو النبقة ولحد بيت أبو المولدة.

تبدأ أم أدهم يومها في الساعة الثالثة من منتصف الليل، وتخرج لرش الدرب بعد أن يستعصى عليها النوم.. وإذا حلمت بأنها تغير أثاث غرفة النوم تتشاءم وتتحايل برذاذ الماء على هذا الاستيقاظ المبكر بعد أن لا ينفعها التمدد مع الوقت في العودة الى النوم، كما تقول.. لديها تماسيح تقف على الجدار الخارجي للبيت.. وهي أهم عناصر جهازها الأمني لمكافحة الحشرات، فهذه الأوزاغ العملاقة تأكل صغار الحشرات والصراصير، وقطها تاتلي يتولى مهمة التهام أكثر من وزغ عملاق في اليوم، وبهذا يصبح بيتها نظيفاً من الحشرات مع اكتمال دورة الموت والحياة بهذه الطريقة.

لم يعد الليل في الخارج مضاءً بأنوار الأبواب الكاشفة التي تبدّد عتمة الحدائق الواسعة، وثمة بيوت تراكمت أمامها الأزبال منذ أن هجرها أصحابها.. حتى أرجوحة نيران ابنة أبو علاء لم تعد موجودة.. فقد جاءت سيارة مسرعة وأخذتهم جميعاً إلى المكان الذي جاؤوا منه.... ويوسف ايضاً لحق بأبيه..... وكان هذا أفضل تصرف ممكن، إلى أن تنجلي الأمور فيعودون أو ألحق أنا بهم.. عندما أرفع نظري إلى الساعة الجدارية العاطلة أجدها خير من يحرس تلك الجدران التي تحمل تصاويرنا مع أخواتي اللواتي سافرن جميعاً إلى

استراليا.. كل واحدة تظهر هي وبناتها في لمّة من لمات الحديقة... أنا أضحك في الصور، وهن يضحكن، وكذلك شقّت ضحكات أخرى طريقها إلى الحديقة، ومن بينها ضحكة سفيان الذي يظهر في واحدة من الصور المعلقة على الحيطان.. تحت الحيطان توجد حقائب وملابس مكيّسة داخل الكناتير.. وكارتونات ملمومة على زمن ليس له صاحب ولا صديق.. أفقتُ من ذلك الحلم القصير وأنا ارتعش مثل عصفور مبلل ينفض عن نفسه الماء في كل جزء من جسمه.. سألتني أم أدهم..

- اسم الله.. شبيك أم يوسف؟ أشو تختضين مثل السعفة؟.

- لا عشتو عالعراقيين أشّون كانوا، وأشون صاغوا.

- أسويلك شاي؟

- لا والله ما أغيد؟

- لعد خلي أروح أغسل المواعين.

- خليها بعدين.

- أخاف أموت ويجون الصبح يشوفوني ما غاسلتها.

المفروض أن يكون سنك أم أدهم نظيفاً حتى بعد موتها.. وحين تسلق أحياناً أنواعاً معينة من الخضار، أو تعد حساءً وقت الظهيرة، فإن الرائحة تصل إلى مطبخي، واستذكر الأيام الأولى لعودتنا إلى بيوتنا بعد الحرب، عندما كانت الكهرباء منقطعة، فتشعل

أم أدهم الصوبة النفطية وتغلي الماء عليها لطبخ الفاصولياء اليابسة أو شوربة العدس.. يمتلئ الجو برائحة النفط مع الماء المغلي مع رائحة الحبوب أثناء سلقها. فإذا ما دخلتْ بيتها وداهمتني تلك الأبخرة المتصاعدة مع رائحة الخبز الحار طابت نفسي على الفور، ووقعت ذاكرتي بغرام تلك الأيام العصيبة.

مهما كانت الأوضاع الأمنية سيئة والمباني خربة والشوارع محطمة والكهرباء مترددة، فهي لديها الأمان التام ما دامت تمشي وتلملم أدق نواعم البيت في صناديق محكمة ونظيفة.. وتمسح حتى أوراق الاشجار بعد العواصف الترابية. ومن داخل هذا الحبس الجماعي الذي يلزمنا بيوتنا من الساعة الخامسة عصراً، تنجو هي بنفسها وعقلها، من الضجر والوحدة، والكآبة والحزن على زوجها، عن طريق التايد والديتول والتنظيف المستمر.. وهو علاج ناجع كما اثبتتْ لي أم أدهم، وقد جعلها تعيش حياتها تمام التمام، وها هي مصرّة على غسل المواعين قبل أن تنام.. فقد تموت وتبقى الصحون متسخة أمام الناس، وحتى عندما قُتل زوجها مباشرة بعد الحرب، تابعتْ بعينيها تفاصيل النظافة أثناء تقديم القهوة ورفع أعقاب السكائر ومناديل الدموع من المنافض.. بل كانت ترفع من بين دموعها كل ما يسقط على الأرض من فتافيت دقيقة لا ترى بالعين المجردة.. لا زالت تنجو مع بيتها على طريقتها الخاصة، بمسحوق

التايد والزاهي سائل غسل المواعين، ورائحتهما رافقتني إلى باب البيت الخارجية. سألتها:

- أم أدهم، أشو حديقة بيت الصيدلانية اللي مقابيلك يابسة و مفلحمة؟

- هُمّه هم هجّوا اخيتي.. أويلاه.. كل البيوت اللي بين بيت أورشينا وبيت المخابيل فارغة، بيت محمد أبو السجاد وبيت محمد استاذ الرياضيات وبيت أم محمد الصيدلانية.. كلهم شالوا..... شلون دادة شلون.. منو راح يجيبلنا هريسة هاي السنة؟

[ليس واضحاً من هو الذي يتحدث في بداية الفصل عن سفيان.. من الجيد أن الحيرة لم تدم كثيراً.. أما في نهاية الفصل فقد عرفنا بفقرة واحدة أن هناك عنفاً و تهجيراً طائفياً.. أليس الرجال هم السبب؟؟ ليتهم يتعلمون من دهاء النساء وبراعة النساء كيف تكون إدامة الحياة، وحب الحياة، وإدارة الحياة..... ولكن لماذا ماريا حبابة إلى هذه الدرجة بحيث لديها أحباب من الكناسين والفلاحين وحتى الجانين، هل تحاولين الإعلاء من شأن الكيانات الدينية والإثنية كما أصبح يفعل كل كتاب العراق.. لكِ ذلك، فقد أصابهم ما أصابهم من الغم والهم بسبب أخوة محمد وطلايب أخوة محمد...]

-15-

معركة أم أدهم

مرّ جعفر حزيناً لا يضحك، فعرفتُ الجواب قبل أن أنطق بالسؤال..

- أين سفيان؟

- سفيان صار له أسبوعين ماكو؟ أهله ما ظل مكان ما دوّروا بيه حتى المستشفيات والطب العدلي.. ماكو .. فص ملح وذاب؟

- شدتحجي جعفر؟ شنو يعني؟ انخطف؟

- كان رايح على صديقه عباس، وأم عباس قالت لنا إنهما خرجا بدون علمها.. والظاهر انخطفوا اثنيناتهم.

- شلون عرفوا؟

- لاقين بايسكلاتهم مكسورة ومشمورة يم التقاطع مال الطريق السريع.. وما لاكيهم لا هوه، ولا عباس.

خفق جنحٌ لطير بين سعف النخيل.. خفقتُه الخفيفة مزقتْ السكون الذي أحاط بي وجعلتني أجفل.. أحاطني الصمت من كل الجهات واعتصر قلبي.. أيعقل أن يكون سفيان قد اختُطف؟

- أهله ماذا يقولون؟

- ينتظرون رحمة الله.

نظرتُ حولي إلى الحديقة، ثم التفتُ من الحديقة إلى جعفر، فرأيته ينظر لي والدموع في عينيه.. لم اعتد أن أراه إلا ضاحكاً بصوت عال. وهو الآن صامت وحزين.. وأنا ساكنة تماماً لا اعرف ماذا أفعل.. تذكرت بعض ماحصل قبل الحرب.. عندما ظن الناس أن حياتهم ستتغير نحو الأحسن.. كان الوقت ربيعاً حيث يخرج الناس للتنزه في الهواء الطلق تحت سماء صافية. وقبل يومين من اليوم الذي أعلنه بوش موعداً أخيراً لضرب العراق، كنت عائدة إلى البيت مع صديقتي في طريق المشاتل التي تحاذي نهر دجلة في منطقة الكريعات ذات المزارع والبساتين. بعد دقائق وجدنا أنفسنا ننزل من السيارة، ونمشي بينها، لكي نشم روائح العشب المبلل، وتتذوق طعم الهواء الطلق يسبح بين طيات ثيابنا، ثم ينشر عطور الورد من ملابسنا إلى الهواء.

لم يكن زوجي عبد الملك في حينها معنا بل خارج العراق، وبيتنا بعيد عن بيت أهلي، فشعرتُ فجأة تحت وطأة حمى حفر الآبار التي اجتاحت الناس بأننا قد أخطأنا عندما لم نحفر بئراً في الحديقة، وبأنني مع ابني يوسف سنموت عطشاً إذا وقعت الحرب، فخرجت من البيت عدة مرات، لأشتري أوعية إضافية لحفظ المياه، ثم شعرت بهلع مفاجيء من احتمال نفادها، فرحت أشتري أكياساً كبيرة من

النايلون السميك، ملأناها بالماء وكومناها تحت الدرج وفي حوض الاستحمام.

فجراً، استيقظتُ على صوت أختي تتصل بي، وهي تقول لي بصوت باكٍ: أستيقظي، فإن الحرب قد بدأت. ولم تكن البدّالات قد قُصفت بعد، وإنما محطات الكهرباء فقط.. وأصبح لا شغل لدينا سوى الاختلاء مع أخبار الإذاعات و الاختباء عند سماع أصوات الصواريخ، وشيئاً فشيئاً اعتدنا على تلك الأصوات، بل شعرنا بالألفة معها، ومع رجفة الخوف وهبْطة القصف. وأخذنا كل ليلة نصعد إلى سطح البيت.. لنرى الحرب.. ونرمي النظر باتجاه الأفق وهو يشتعل بالحمم التي تقذفها الطائرات والصواريخ على بغداد فيصبح منظرها وكأنه الجحيم..

أين العلة يا ترى؟.. يجب أن تكون هناك علة فيما يحدث لنا.. إنه لشيء عجيب كيف ترف قلوبنا عندما نسمع صوت صافرة الإنذار وتبدأ الغارات.. كيف نُثار وننفعل لأصوات الصوايخ والطائرات؟.. كيف يكون الذعر بعيداً عن العاقل والمجنون؟ فهل أحبّتنا الحرب لهذا السبب؟.. من غير المعقول أن تكون الحرب قد أحبتنا دون ان تعرف بأننا نحبها.. وبأن الملل قد يصيبنا إذا ما هجرتنا.

لم نعرف معنى الذعر الحقيقي إلا بعد أن صمت صوت الطائرات وبدأ صوت الرصاص؟، وكان جارنا محمد أبو أدهم أول من قُتل في منطقتنا.. فهو كان بعثياً يعمل في المخابرات، وعندما طُلب من الموظفين السابقين العودة الى أعمالهم.. عاد بسرعة فتمت تصفيته في شارع فلسطين من حزبه، كما قيل، أما من لم يعد الى عمله، كأخيه الطيار، فقد تمت تصفيته من أحزاب أخرى.

كانت زوجته أم أدهم تندب مع النادبات بصوت مبحوح وقد تغير صوتها وكأنه أصبح يأتي من عالم آخر، ولكن معركتها مع النظافة لم تتغير ويجب أن تستمر وتنتهي بالنصر... للنصر أيام وأيام في بلادنا .. يومٌ على فيصل الثاني، ويومٌ على عبد الكريم قاسم، ويومٌ على عبد السلام عارف، ويومٌ على أحمد حسن البكر، ويومٌ على الخميني، ويومٌ على بوش، ويومٌ على صدام حسين، ويومٌ على أبو مصعب الزرقاوي. فما موقع سفيان من كل هذا الكلام؟.. هذا الفتى المسالم ضعيف الحال الذي لا يعرف من الدنيا غير الورد والشجر.. لماذا يُختطف وماذا يريدون منه،وأين هو الآن؟ توقفت سيارة حديثة الموديل يسوقها شاب حليق الشعر طويل اللحية بنظارة طبية.. نظرتُ إليه فوجدتُني أعرفه.. أكيد أنه معروف وقد غيّر شكله بسبب الظروف:

- مرحباً.

- من أنت؟

- أنا عبد اللطيف، وقد أصبحت مدير المشرحة..

تخيلت سفيان منطلقاً على دراجته في مكان ما يسابق الريح ويضحك، ثم وجدت نفسي أسأل طبيب المشرحة وأنا أبكي:

- هل استقبلتم جثث فتيان في الأيام الأخيرة؟

قال لي كلا.

-16-

نجمة الدير

- هل تقصد ستطول إقامتنا خارج العراق؟ أم هذا العام فقط؟

- في الحالين أنا أبذل ما في وسعي من أجل أن نقيم ما تبقى من حياتنا في بيت مرتب ومريح.

- بمعنى أن يكون هذا البيت بديلاً عن بيتنا هذا؟

- أنا أريد أن نرتاح وأن أنجو بروحي وأرواحكم.. أريد أن أشتري راحة بالي. وقد لا أستطيع العثور على هذا الشيء في المزابل التي تدافعين عنها؟

جرت الترتيبات لكي الحق بزوجي وابني في مصر.. اشترى زوجي شقة أخرى في ستة أكتوبر، وطلب مني المجيء بعد أن أصابه القرف مما يحدث هنا. هرب من الدنيا الجديدة التي انقلبت عليه وزادته قرفاً فيما يخص نظرته العدوانية للفقراء والمعدمين.. تكاثروا بعد الحرب، وظهروا من كل مكان، فحق لهم أن ينطلقوا بعد الحواسم، ويحملوا اسمها.. إنه يكره أي شخص لا يشبهه ولا يستثني من كان يُظهر سناً مقلوعاً اثناء الضحك، أو لديه صوت مبحوح..... فكيف إذا كان الذين يكرههم قد قلبوا الدنيا رأساً على عقب؟.. الخادمة أمل، التي كانت تأتي لمساعدتي في فرش السجاد..

هل تذكرها يا عبد الملك؟ لقد سألتُها ذات يوم: ماذا تريدين للغداء؟ همبركر أم دجاج؟ فرأيت سعادة الدنيا كلها في عيني حفيدتها الصغيرة التي لا تذهب إلى المدرسة.. فهل من المفروض أن أجعل هذه الصغيرة لا تشعر بالحرمان إلا عندما تكون أقل مني.. أو أن أجعل جدتها تشعر بالسعادة في أيام التنظيف الموسمي إذا ما جمعتُ لها ملابسك التي مللتُ منها، أو اعطيت حفيدتها بعض بقايا النستلة والحلويات، وليس هدية جميلة مثلها ومثل باقي الهدايا في العالم.. يا عبد الملك أنني لا أدافع عن الفقراء أو الفرهود، ونحن لسنا في عالم مثالي، ولكن أخبرني فقط كيف لا يشعر الفقراء بالحقد علينا، ونحن أولادنا أطباء ومهندسون، وهم أولادهم صبّاغون وزبّالون وفلاحون وسائقو أجرة وحادلات أو عمال بناء.. أولادنا يحملون اللابتوبات وأولادهم يحملون المساحي والدلاء وطاسات البناء.

نجح يوسف أخيراً في البكالوريا فانتهت الحجج.. وسافر قبلي الى مصر ريثما أجمع طاقتي و أطرح حجتي الأخيرة.. استغرقت أربعين يوماً لكي أرتب شؤوني وشؤون البيت.. لمن أتركه؟ وكيف أجد له الحارس الأمين؟. أخرجت ورقة وقلماً وأمليت على أخي بعض التوصيات.. كما طلبت منه أن يجد أحد الأشخاص الأنقياء الصادقين لكي يقوم بحراسة البيت.. هل يعرف أحداً منهم أضع

البيت بعهدته؟.. ذكر لي ثلاثة اشخاص فقط.. واستقر اختيارنا على رجل كبير السن ليست لديه عائلة. اشتريت أيضاً مجموعة لوحات بغدادية لكي آخذها معي إلى مصر.. عجوز لها دقات وشم على وجهها المليء بالغضون. امرأة تجلس أمام قدر كبير من الباقلاء يتصاعد منه البخار.. رجل يرتدي الجراوية ويقوم بالطرْق على النحاس في سوق الصفافير.. خياط صحون الفرفوري وهو يحمل عدته على كتفه ويجول بها الشوارع.. خيّاطة تنكب على ماكنة سنجر وامرأة تبيع مكانيس الخوص.. جمعت عشر لوحات في وقت صعب كانت فيه أكثر الكاليرهات قد أغلقت أبوابها، وكذلك المسارح والسينمات وصالونات التجميل. توقفت الحياة في بغداد، ولكن بغداد بقيت هي بغداد.. سائل غسل المواعين المعروف باسم زاهي ينهمر كالشلال على سنك أم ادهم، ومعه مسحوق غسل الملابس الذي ظهر أول مرة باسم تايد، فظل يحمل اسم تايد لحد الآن... حتى بعد أن انقلبت الف عمامة.

دار أم أدهم ملاصق لبيتي من جهة اليمين، أما الدار التي تجاورني من جهة اليسار فقد أصبحت مشغولة بالناس أخيراً، وظهرت فجأة على جداره بعض المدات والبطانيات واللحفان..... لثلاث سنوات بعد الحرب وهو صامت جداً.. هاجر أصحابه وتركوه فارغاً يتردد عليه الغرباء الطارئون ثم يصدون عنه لبيت

مهجور آخر.. أخيراً سكنته عائلة مهجّرة من حي الحرية.. وبدأت الأصوات تتزايد والصراخ يتعالى.. أولادهم يتعاركون مع أولاد الجيران ويحطمون الكثير من المصابيح.. ولأن الوقت كان ربيعاً عندما سكنوا البيت، فقد تحركوا بحرية بين السطح والحديقة، وسقطت علينا الأحذية والنعلان والدجاجات أيضاً.. وبعد الدجاجات جاءتنا خرفان ترعى من الياس المزروع على الرصيف..

يجب أن أتحدث معهم، ولكن مع من أتحدث وأنا لا أسمع سوى أصوات الرجال وأسامي الرجال؟ لا أحد أتحدث معه سوى فتاة ترتدي جورباً رجالياً تقف بالباب؟ كانت ترسم خطاً بالطابوق يسوّر الدرب المجاور لبابهم.. بحيث لا يمكنني إيقاف سيارتي في مساحته.. ظلت تضع الطابوق وتضحك بطريقة غريبة.. وجهها باهت اللون، وتبدو أصغر سناً من يوسف.. سألتها لماذا تفعل ذلك، فنادت أمها الطويلة التي ترتدي عباءة سوداء أطول منها، وتنظر في جميع الاتجاهات.. تبدو وكأنها عمياء، ومع ذلك فإنها حرّكت بؤبؤيها باتجاهي، وأخذت تضحك معي.. ضحكتُ معها، فانقلبت سحنتها، واتضح أنها تضحك على منظر امرأة سافرة بيضاء الشعر، ولا تضحك لمنظر ابنتها التي تقف في الشارع حافية بملابس البيت.. قلت لها:

- ما هذه الأذية؟ لبسان ونعلان وخرفان!؟

الخروف هو الذي حسم لحظات الصمت بين سؤالي واستخفاف المرأة الطويلة بمظهري.. ظننته مربوطاً بالحبل إلى جذع شجرة الرصيف، لأنه يبرك على الأرض ويضع رأسه بين قائمتيه، وفي عينه بعض الدموع.. وأنا كنت مشفقة عليه غاية الإشفاق، فمن الواضح أنه مهيّأ للبيع أو الذبح، فلماذا بدأ يتململ في مكانه ويحاول النهوض، ثم اتخذ قراره الخاطيء وقفز فجأة فور أن رآني أدخل الى البيت؟.

تغيرت حركتي واستدرت بعصبية باتجاه الدخول إلى البيت، فلمَ لا يغير هو أيضاً حركته، وينهض واقفاً على قوائمه الأربعة، ثم يمشي خلفي... تعثرتْ رجله بالحبل المرتخي قبل أن يستوي واقفاً .. ولا أدري ماذا يقصد أو يريد؟ هل أجرب أن أختبر ماذا أفعل حول ذلك، فأقف فجأة، أم أواصل المشي.. ثم أركض بأقصى سرعتي وأنا ملتفتة إليه لحماية ظهري الذي اقشعر من الخوف؟.. لا يزال يمشي ببطء، والذباب متجمع حول عينيه الدامعتين.. هل أركض؟ هل أصرخ في وجهه لكي يخاف، أو يغير رأيه؟.. وبدون أن أطيل في تخميناتي ركضت فتبعني والحبل السائب يتدلى من الأنشوطة التي تحفر حزاً عميقاً في كومة الصوف حول رقبته. الباب كانت مفتوحة وأنا لا أسمع سوى صوت حوافره الأربعة تنقر على بلاطات الكراج.. فما أن انتهتْ محادثتي مع تلك المرأة وابنتها حتى نهض من

مكانه واتخذ قراره بالركض خلفي.. هو الآخر كان منزعجاً مني، فما السبب؟ هل كان شعري الأبيض هو السبب؟ هل استلمَ أمراً ما من المرأة الطويلة، وهل تتصرف الماشية مثل أصحابها فتنتقم وتكره؟ الأنشوطة واسعة والحبل يتدلى وراءه، وبه تعثر أخيراً، ثم توقف قرب باب المطبخ..

عبد الملك تهكم، وتضاحك عليّ كثيراً، وطلب مني ساخراً أن أحتمل وأحب أصدقائي من الفقراء وجيران العالم السفلي، فهم لا يستحمون بقوارير الشامبو مثلك يا ماريا.. ولا يشربون شاي العصر من ابريق الورد المنثور مع الحليب الدافيء وقطع الكيك الانكليزي المحشوة بالقشطة وقطع الفاكهة... فلا تتكلفي، وتطرحي نفسك بشكل مختلف عن الحقيقة.. تقتنين لوحات بائعات الباقلاء والخبازات والخياطات، وتدافعين عن الفقراء والمساكين وأهل الفرهود، وهذه هي حياتهم في الحقيقة.. خرفان ونعلان وجوارٍبات مثقبة يطيرها الهواء إليك مع السراويل الداخلية والعباءات السود، فلا تناقضي نفسك يا ماريا.. يا ابنة نجمة الدير.

هذا هو لقب أمي نيلوفر التي خدمتْ في دير مار متي شفيع الكنيسة في الموصل، مع الراهبات اللواتي ينذرن حياتهن للأعمال الإنسانية وترميم البشر، أختها أيضاً ترهبنت في الدير فترة من حياتها. وكرست الحياة كلها لله.. فلا يوجد زواج ولا جنس ولا

شيء من هذا القبيل، لا في الأرض ولا في السماء كما في بعض الأديان الأخرى، وقد أوضح الكتاب المقدس هذه الحقيقة كاملة في قوله: "في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء".. أمي لم تستمر في الرهبنة، وخرجتْ من الدير رقيقة كالملاك تتحدث عن الناس بكل خير وكأنهم يسمعونها، وحتى عند إلقاء اللوم عليهم، تذكرهم بكرامة، وكأنهم يرونها.

لا تزال أمي تسكن في بيت أهلها بحي الساعة في الموصل.. تنتظر أن يزورها أحد ما من أولادها، وتدعو الرب ومريم العذراء أن تنتهي الظروف التي تحول دون ذلك.. ولكن الظروف هي نفسها بعد خمس سنوات من الحرب... فلا زال مسيحيو حي الساعة يفرون إلى القرى المجاورة خوفاً من الهجمات التي ظلت تستهدفهم منذ العام الاول للحرب. وعندما تمر سيارة طبيب المشرحة فإن عليها أن تسلك طرقاً مختلفة، لكون التعليمات الأمنية لدائرة الطب العدلي لا زالت قائمة.. النافذة الأمامية فيها الدكتور محمد الذي يرفع يده بالسلام، والحوض الخلفي فيه محمد الصباغ الذي طلب مني أن أدعوا له بالتوفيق في خطبته، إذ لم لم أتمكن من مرافقته مع المشاية إلى بيت العروس. فمن هذا الذي يقود السيارة؟ هل هو محمد عبد الكريم طبيب المشرحة؟ أصبحتُ أراجع نفسي بعد أن مرت السيارة، لا لا لا.. هذا ليس الدكتور محمد عبد الكريم، إنه شخص

آخر ذاهب مع محمد الصباغ في خطبته، وأنا التي ارتج علي الأمر بسبب القلق.

تمشيت باتجاه بيت طبيب المشرحة.. كنت بحاجة لسؤاله عن الأفكار التي تزعجني عن سفيان، فوجدت لمة كبيرة في طرف الزقاق من الجهة المقابلة لبيت طبيب المشرحة.. الأصوات كان عالية ومتداخلة بحيث لم أفهم منها شيئاً في البداية.. جمع كبير من الناس يتجمعون ويتجادلون وسط الشارع، وكأن الدنيا قد انقلبت، والسماء قد انطبقت على الأرض.. صوت محمد أبو فرات لم يتغير وصمت أبو زمان لم يتغير، وأصبحا يستعينان بالمحكمة والعشيرة والأقارب للتوسط حول المتر الواحد، ولا اعترض على ذلك، فهذه المصيبة هي مصيبتهم.. ولكن منظر كرة سفيان وعباس وخز قلبي وأشعرني بالألم.. لا زالت هناك على السياج.. مرت عدة أسابيع على اختفائهما وهي لا تزال هناك.. حاول جعفر استرجاعها فقامت معركة كبيرة بين أبو فرات العصبي وجاره السكوتي.. وامتد الشجار إلى بيوت أخرى، فانقسما فريقين.. فريق يؤيد محمد أبو زمان وفريق يؤيد محمد أبو فرات.. وظلت الكرة هناك متهافتة فوق الأعراف، وكأنها ثمرة يقطين قديمة ومتعفنة فشت وتكرمشت وتلوثت بالغبار.

وقفت سيارة قديمة الصنع يسوقها شاب يرتدي الغترة والعقال. نظرتُ إليه فوجدتني أعرفه..أكيد أنه معروف وقد غيّر شكله بسبب الظروف..قال لي:

- مرحباً.

- من أنت؟

- أنا عبد الفتاح، مدير المشرحة.

- هل أصبحت مدير المشرحة يا محمد عبد الكريم؟

- نعم، أصبحت مديراً لها، وقد قلت لك ذلك.

كان بعض ورق العنب اليابس قد سقط على هامته بسبب مروره تحت عريشة العنب التي تظلل كراجهم وكراج محمد الكردي.. ناديته باسمه الصريح وقلت:

- فدوة لعينيك دكتور محمد، هل؟

قبل أن أكمل سؤالي أجابني:

- كلا، لم تصلنا جثث فتيان هذه الأيام.

-17-

علياء والمرآة وسكة سفر

- أريد المراية؟؟ أريد المراية.. أريد المراية.

النظرة التي استقرت في عيني علياء كانت غريبة. إنها واقفة ترفع يديها وتطيل النظر إلى المرآة التي أظهرت وجهها على شكل بياض شاحب.. ومن خلفها لا أظهر أنا، ولا الأريكة التي أجلس عليها داخل غرفة الخطار، وإنما ظهرت الجدران الفارغة تماماً سوى من لوحة مستطيلة الشكل خط فيها أبوها بعض الزخارف النباتية الملونة التي تحيط بوصية عراقية قديمة مذيلة باسم غريب هو قائلها أحيقار الحكيم.... يا بني إذا جابهك عدوك بالشر جابهه أنت بالحكمة.

أظل أتحدث إليها وهي تتحدث إلى المرآة وتضحك:

- ربما تكون الرياح هي التي حملت سكان الزقاق فطاروا إلى الهواء العالي.. هههههه.. ربما إذا بحثنا عنهم جيداً سنعثر عليهم في حدائق الجيران أو في الباحات الخلفية للبيوت.. خلف العرموطة أو الرمانة او أشجار النخيل.. هناك سنعثر عليهم مختبئين.. زين ذوله شبيهم؟ ليش خايفين؟.

جاءت تجلس على الأريكة بقربي، فهل تعبت من الوقوف؟، أم أنها رأت أمها قادمة إلى الغرفة، فصمتت لكي لا تأخذها للطبيب

مرة أخرى. أول أن خرجت أمها من الغرفة مرة أخرى، ضحكتْ، ونقلتْ المرآة من حضنها إلى يديها، ثم قامت بقلبها من الأسفل للأعلى، وقالت لي بصوت خافت:

- هكذا لن نرى أنفسنا بوضع مقلوب.

أصبحتُ استيقظ من النوم إلى الفراغ بعد أن توالت الأيام وأنا أرفع من غرفة نومي كل الحاجيات الفائضة عن الحاجة. اختفت الساعة واللوحة والكثير من التحفيات حتى أصبحت الغرفة خالية تقريباً.. لم يتبق سوى هذه المرآة التي تلم كل أفكاري في سحابة، وتدرك شيئاً لا أدركه أنا.. كل مرايا البيت تجعلني أبدو أكبر سناً، وأبشع صورة لسبب لا أفهمه.. كلها تعمل على كشف عيوب وجهي وتهدل فمي وأجفاني.. وفي بعض الأحيان تعمل مرآة السيارة العمل اللئيم نفسه..أما هذه المرآة الجديدة فأمرها مختلف.. إنها جميلة وتجعل الوجه يبدو جميلاً.. لا أدري كيف ظهرت، ولا كيف احتفظتْ بسطحها الصقيل اللامع وزخارفها الزرقاء البديعة التي تحيط بها على شكل تمائم مقرنصة من أمهات الـ (سبع عيون).. ما أتعس أن يحتفظ المرء بحاجيات جميلة دون أن يستعملها لمجرد كونها جميلة. يؤجل استعمالها في كل مرة حتى ينتهي به الأمر إلى تحويلها تحفة نفيسة لا يجب المساس بها..

تحاول ماريا أن تأكل الطعام الذي تعده بنفسها كيفما اتفق.. وقد تكتفي بنصف صحن مما اعتادت أكله فيما سبق.. لن تنام الليل لعدة أيام من شدة القلق، وهذا ما كانت تشعر به قبل كل سفر، فكيف إذا تحول السفر إلى هجرة؟، تدبرت مشترياً للسيارة عن طريق جارها محمد الصباغ، وعند البيع فقط اكتشفت أنها كانت مشخوطة في أكثر من مكان عن عمد.. لا تحتاج انتزاع الاعترافات من أحد لكي تعرف أن مشاكلها مع جيرانها الجدد هي السبب..

- أريد المراية. أريد المراية. أريد المراية.

أنجع الطرق للقضاء على القلق هي ترتيب خزانات المطبخ ودواليب الملابس.. وقد قمت بتقليب محتوياتها أكثر من مرة، فدائماً ثمة شيء فائض لم نتخلص منه.. وهذه المرة كانت المرآة موجودة تحت طبقة الألبومات التي قلبتها في مرات سابقة دون الانتباه إلى باكيت المرآة تحت الصور وتحت التراب.. فتحته فوجدت المرآة محتفظة برونقها القديم نفسه داخل كيس من النايلون المبقبق ثُلف به عادة تلك الحاجيات القابلة للكسر.. لم تنفجر من فقاعات الكيس فقاعة واحدة مما يعني أنه لم يُمس أو يفتح من قبل.. حتى مقبضها الفضي الأنيق بدا وكأن يد البائع قد امتدت وأخرجته تواً من الجامخانة... ارتجفت ذاكرتي واسترجعتْ موقفاً محرجاً حدث... كنت عروساً تؤمن بالنظرية التي تقول بأن الهدية يجب أن لا تهدى

أو تباع.. وأن يحتفظ المرء بالهدية يعني الاحتفاظ بالذكرى حتى وإن كانت مثيرة للحرج، والذكرى كانت عن (بخة ماء) واحدة يمكنها أنقاذ الرز مع الكرامة من العدم... بخة الماء هذه هي حكمة النساء، أما الرجال فيُغرقون الدنيا بالدماء..

سلق الرز هو من أسهل دروب الطبخ والنفخ بالنسبة لأمي، ولكن بالنسبة لفتاة عروس تطبخه للمرة الاولى، هو أصعب من النظرية النسبية.. وفي أوائل أيام زواجي جاءتْ صديقتي فاطمة لتزورني وتبارك لي، وبقيتُ أنا قلقة في ذهاب ومجيء بين المطبخ والهول مغبة أن يحترق أو يشيط الرز على النار.. اتبعتُ كل الخطوات واستظهرت كل تعليمات أمي قبل وضع القدر فوق(السيباية) في آخر مرحلة من مراحل طبخه على النار.. غير أن رائحة شياط الرز لا تزال في أنفي.. ولا تزال فاطمة تضحك كلما تذكرتْ ذلك اليوم.. لا أزال أقول لنفسي أن الأمر لا يحتاج سوى إلى نار هادئة وبخة ماء.. وبخة الماء هذه هي التي تشكل الفرق بين الخبير والغشيم، فكم كنت غبية عندما ضايقني ذلك الفرق، وظننته يستدعي كل هذا الكم من الحرج والخجل كلما تذكرته، بحيث لا أعلق هذه المرآة منذ أن جاءت بها فاطمة صديقتي هدية لعرسي. احتفظتْ بنفسها عذراء داخل شرنقتها فلم تختزن صورة جندي

أشقر دخل لتفتيش البيت، أو ظهرت فيها رشاشة يصوبها نحو الباب قبل فتحها.

- أريد المراية. أريد المراية. أريد المراية.

بيت المخابيل غرق في الصمت في الأيام الأولى للحرب.. ولم تعد علياء تصرخ صرخاتها المخيفة وقت الغروب.. حتى أمها لم تعد تذهب لشراء الخضار، وإنما يأتي بها الصانع الذي يعمل عند محمد الخضري ويظل واقفاً بالباب يحمل أكياس المشتريات .. الباب مدفونة تقريباً بورق متساقط لم يرفع منذ شهور.. اليانع منه والمتفسخ. طبقات فوق طبقات أخرى لولا هبوب الريح أحياناً لتحولت إلى مستوطنة متعفنة لبعض المخلوقات ذات المخالب والأشواك.. تلافيت تلك الأكوام المتلاطمة قدر الإمكان لكوني قد خفت بالفعل أن يعضني فم أو يخدشني مخلب يخرج من بين الأوراق.. هل أدركت علياء شيئاً لا ندركه نحن.. فما أن رأتني أدخل عليها أحمل الباكيت المغلق على المرآة، حتى ركضت نحوي وقالت:

- أريد المراية أريد المراية.

لم تنفع محاولات أمها في تهدئتها. فاستغربت كيف عرفت علياء بأني أحمل مرآة داخل العلبة المغلقة.. قلت لها لتفتحها إنها لها.. فطارت علياء من الفرح، وظلت تنظر إليها، وتحرك رأسها

قريباً من المرآة وكأنها تقرأها.. ظلت صامتة إلى أن اختفت أمها من الغرفة.. ثم قالت وهي لا تزال تنظر في المرآة: هذولة شبيهم الناس.. أشو طايرين بالهوا، وأورشينا تدّور عليهم تريد ترجعهم للبيت؟ فما معنى اسم أورشينا يا ماريا؟

- أورشينا هي أرض السلام.. والسلام أغلى من كل شيء.

- ظننته اسمها يعني الجكليتة ذات الغلاف البنفسجي في علبة الماكنتوش؟

- هههههه. الظاهر أنك تحبينها يا علياء؟

- إي أحبها.. أورشينا دائماً تجيبلي منها، لكن حرامات بالعجل تخلص؟

- وأنا أيضاً سآتي لك منها في المرة القادمة، فاخبريني أنت كيف عرفت بأني قد جلبت لها المرآة هذا اليوم؟

لم يتغير شيء فيها.. ضحكت علياء ونطقت:

- لأن كل الهدايا التي جئت لي بها من قبل كانت واضحة ومكشوفة، ما عدا هذه المرآة.. كنتِ تغطيها.. تحضنيها.. وتحمليها يواش يواش.

قلبت المرآة التي في حضنها من الأسفل للأعلى؟ وبعد أن اختفت أمها مرة أخرى نظرت لي وقالت بصوت خافت لكي لا تسمعها أمها:

- هكذا لن نرى أنفسنا بوضع مقلوب.

كان آخر ما رأيته، قبل مغادرة بغداد، هو صور رئيسة منظمة كير للاغاثة مارغريت كير التي قُتلت بعد عام واحد من الاحتلال، أي في العام نفسه الذي أصيبت فيه سيارتنا بنيران الجنود الأمريكان عندما كنا نعبر مطباً صناعياً ولم نتوقف.. كان الناس يحبونها ويتمنون عودتها سالمة من الخطف، وأنا أيضاً شعرت بالأسى عندما رأيت صورها لا زالت مرفوعة في الشوارع الأربعة باليرموك وأنا في طريقي إلى مطار بغداد، مكتوب تحتها نداء مؤثر للإفراج عنها، لم يأت بنتيجة طيبة، ولا ألان قلوب الخاطفين، فقُتلت مثل الكثير من العاملين في المنظمات الأمريكية والأوروبية غير الحكومية.. والذين نُصبت لهم الكمائن والسيطرات الوهمية على الطرق.

نال المسيحيون والصابئة والأرمن حصصهم من الحرب.. أما المسلمون أنفسهم، فلا أحد يتآمر عليهم.. كما يقول زوجي عبد الملك، ولا احد يستهدفهم كما يظنون.. العيب كل العيب فيهم، ولن يعرفوا الراحة أبداً مع عقلية العنف التي تربوا عليها.. وانظري كيف يصومون ويُصلّون الصلوات الخمس، ولا ينظرون إلى الأموال التي نهبوها، و الأرصفة التي سرقوها وضموها إلى بيوتهم.. عادة ما أصمت إزاء هذه الحالة ولا أعلق عليها بشيء أمامه، لأن مناقشته لن

تفضي إلى نتيجة في مثل هذه الأمور، فكيف إذا رأيت سيارتي مشخوطة من الطول للطول بآلة حادة؟.. كان هناك حد مرسوم بالطابوق بيني وبين الخروف الذي يتبدل باستمرار.. فكرت بإطلاق سراحه انتقاماً ممن ألحق الأذى بسيارتي.. كدت أن أنجر إلى كراهية عبد الملك للجميع.. إلى ضميره المرتاح دائماً..... إلى وهمه عن مستقبلنا بعيداً عن هذا الخراب، إلى أن تكون البحة هي السبب..... خرجت المرأة الطويلة تريد استدراجي إلى العراك وصوتها مبحوح بشكل مزعج عندما تضحك.. أبو يوسف لم يكن يحب أية امرأة في صوتها بحة، بل ويضيق بها، أما إذا كانت تلك المرأة ممتنة لتلك البحة، أو تتباهى بها، فهي من الوقحات بنظره.. الدنيا بأسرها أصبحت وقحة حتى بدون الحاجة إلى أي إشارة أو علامة.. فماذا نفعل؟

فكرت بسفيان، وقررت أن أزور أهله للاطمئنان عليهم ومعرفة اخباره.. الطريق إلى هناك مألوف عندي لأنه كان طريقي إلى كليتي التي درّست فيها ثلاثين عاماً.. وضعت شالاً على رأسي ومضيت لبيت سفيان يتقدمني جعفر هذه المرة على دراجته. عبرت سيطرة أبو غريب من جهة الطريق القديم باتجاه كلية الزراعة.. من هناك نزلنا إلى دروب ترابية سبق أن مشيتها مع سفيان، والآن مع جعفر الذي كان يضحك طوال الطريق ويرد على التحايا المبالغ فيها

إلى حد كبير.. هلو.. هلو.. لك هلاااااو.. أنا أعرف السبب، وكنت أحاول أن لا أبدو للعيان من خلف شال يغطي بعض رأسي.. ولكن امرأة سافرة الشعر تقريباً تقود سيارة في تلك المناطق لهو أمر يثير الهمهمات والانفعالات بين الجميع. أنهار لو كانت موجودة معي لكانت هناك مظاهرة أكبر تمشي خلفنا وتحيط بنا.

أنهار طلبتْ مني أخذها معي إلى أبي غريب.. هي لا تتذكر سفيان، ولا تعرفه، وإنما ظنت أنني ذاهبة في رحلة.. طوال الطريق وأنا أفكر.. الثلاجة عاطلة والمصلّح سيكون بانتظاري عندما أعود من بيت سفيان. فما معنى هذا البعد وهذه البهذلة.. زوجي في مصر وقد صبغ شعره بصبغ أسود فاحم، وحلق شواربه ولحيته، أنا في بغداد أتنقل بين أرجاء بيتي واضمضم أغراضه... هو في صوب وأنا في صوب آخر.. تاه الوقت.. لا نعرف كم الساعة عنده أو عندنا.. ملابسنا في الحقائب دائماً تهيؤاً للسفر في أية لحظة، ملابس الصيف مع ملابس الشتاء. يعرف زوجي عبد الملك أني مولعة بالأباريق الخزفية، واقتنيها في حِلّي وترحالي، ويجب أن يشتري منذ الآن واحداً لي بتصميمات الورد المنثور، لكي أضمها إلى باقي مجموعتي عندما نعود إلى بغداد.

- لدي قرحة من قهر العراق يا ماريا. وانت تريدينني أرجع للعراق..

حدثت المفاجاة.. فالجار المصري الذي يسكن في الشقة المجاورة يواصل حديثه مع عبد الملك ، وعبد الملك يرد عليه باللهجة المصرية، وأنا أسمعه وأراه:

- سلامتك. طَب إيه هي مشكلتك؟

- مافيش حاجة يا أستاذ؟ أنا مدمن مخدّرات وطلقتُ زوجتي، وأنا دائخ أكثر من مرة، وفعلاً تم الطلاق، وقد مر على هذا الموضوع عدة سنوات. الآن لا أعرف ما إذا كان هذا الطلاق صحيحاً أم لا؟ كل شيخ يفتي بفتوى مختلفة.. و يعطيني جواباً مختلفاً .. فهل هناك من طريقة لرجوعي زوجتي من جديد؟

- طب ما ترجع.. عادي يعني.

- لقد تطلقت مني ثلاث مرات. سألت الجامع فجاء الجواب من شيخ الجامع إذا كنت قد تلفّظت به أو كتبه بنيّة الطلاق، فالطلاق واقع، لا يجوز العودة إلا بمحلل. .

وجد عبد الملك نفسه في موقف لا يحسد عليه، غارق في بحر الذهول، المدمن يلمّح إلى شيء معين كبحثه عن محلل، وعبد الملك لا يعثر على جواب. فتولّيت الضحك عليه من مكاني في بغداد. قال عبد الملك له آسف.. فانصرف الجار دائخاً أكثر من الأول.. فقط قال كلمة (ماشي)، مع هذيان يترجم اليأس الذي يطبق على ملامح الوجه.. كنت أظن هذا النوع من المشاكل موجود في برامج

التلفزيون فقط، فإذا هي تمسك بتلابيب الناس ممن أمسك الفقر بخناقهم، فتحولت حياتهم الى بؤس وصراع من أجل البقاء لا وقت فيه للضحك أو الابتسام أو كلمات التحية والتودّد..

مع هذا أصبح لعبد الملك هوس غريب بشراء الشقق في الكوماوندات السكنية الجديدة في مصر، ولا استغرب أن يرن جرس الموبايل في الساعة الثانية ليلاً أو الخامسة فجراً ليقول لي بأنه قد اشترى شقة جديدة.. بينما أنا أُصفّي أمور البيت، واكتشف عشرات الأقلام والميداليات وأطقم الهدايا التي يحتفظ بها في الأدراج.. كيف سأتخلص منها جميعها، ومن أطقم العطور والصوابين الغالية.. والبومات الطوابع بأسنان وبدون أسنان.. أليس هذا كله ما يجعل ترك البيت صعباً للغاية!!

أم سفيان كانت جالسة على عتبة الباب.. وأمامها كومة من قشور الحب منثورة على التراب.. استقبلتني بضحكة عريضة، وهي تكرز حب الشمس قمر..

- هسة يجي.
- إن شاء الله.
- هسة يجي.
- شلونك أم صباح؟
- شلوني؟ صخام ولطام. انتِ منو؟

عرفتُ أن ثمة خطأ منذ البداية.. خديجة ابنتها خرجت، وقالت لي أن امها ليست على ما يرام.. كانت الباحة التي دخلتُ إليها فيها شرشف مفروش وفوقه قشور الرمان والبرتقال وبذور الرقي.. لا شيء يُرمى الى الزبالة في هذا البيت كما يبدو. نظراتها كانت مصوبة نحوي، وفجأة جرّتني من يدي وقالت لي: انظري هذه هي الستائر الجديدة التي أعطيتها انت سفيان.. وهذه هي حصّالته.. رفعت نظري من الستائر الى السقف، فوجدت المروحة قد ازيلت ريشاتها الدوارة، ولفت بكيس من النايلون الشفاف السميك للحفاظ عليها من الغبار.. في البيت رائحة وخمة تشبه رائحة البيوت البلاستكية المغطاة في المشاتل الدفيئة.. والثلاجة قد أكلها الصدأ من حافتها السفلى، والعرق يتصبب من محمود طفلهم المعوق الذي أصبح في العاشرة من العمر.. سألتُ خديجة:

- كم أمبير ساحبين؟
- أمبيرين.
- لماذا المروحة السقفية لا تعمل؟
- لا أحد يعيدها كما كانت.
- أين باقي أخوتك؟
- سفيان راح وصباح هاجر وعثمان بالسجن، وبس حمودي بالبيت.
- هل تعرفين مكان الريشات؟
- نعم.
- نادي على ابن عمك جعفر. ستتساعد على شدّها من جديد.

عندما فتحتْ أمه الحصالة أمامي رأيتُ الكثير من الأشياء اللامعة والملونة، وليس مستغرباً أن أجد في قاصته حتى الميدليات التي جمعتها له أثناء تصفية اغراض البيت.. رحلة كل إنسان تنتهي في مكان واحد هو البيت.. وجلعني ذلك أسأل نفسي هل بيت سفيان وأهله يعتبر بيتاً؟ وهل هذه القاصة الخالية من النقود تعتبر حرزاً يُعتدّ به؟ أم هذه الطيور الحزينة يمكنها أن تكون صاحبة اليد العليا في هذه الحياة؟ في يوم من الأيام جاء إلى الشيخ الجليل طالب من طلاب العلم، وكان شاباً فقير الحال، يستأذنه أن يسافر ليطلب المال، فأذِن له الشيخ بذلك، فأخذ الشاب امتعته وبدأ رحلته الطويلة، وبينما هو مسافر مر بمنطقة صحراوية مهجورة وجد فيها طائراً جريحاً ملقى على الارض، ولكنه كان لا يزال على قيد الحياة على الرغم من الجروح التي أصابته، نظر الطالب إلى الطائر في دهشةٍ وتعجّبٍ شديدَيْن وهو يقول في نفسه: كيف تمكن هذا الطائر من البقاء على قيد الحياة مع كل هذه الجروح التي اصابته؟! اهتم الشاب لأمر الطير كثيراً، وظل يراقبه فترة من الزمن، فإذا بطائر آخر يأتيه كل ليلة ويجلب له الطعام. أصابت الحيرة والدهشة ذلك الشاب وأخذ يردد سبحان الله. إن الذي يرزق الطير في الصحراء، سيرزقني بالتأكيد وأنا عند الشيخ دون أن أسافر، فأخذ الشاب أمتعته ورجع الى شيخه من جديد وألغى فكرة السفر لطلب المال. حين رآه الشيخ سأله: ما الذي أعادك من جديد بهذة السرعة؟، فحكى له قصة الطائر الجريح الذي وجده في الصحراء، وكيف أن الله عز وجل قد بعث له رزقه من خلال طائر آخر يأتي إليه بالطعام كل ليلة،

وبالتالي فإن الله الذي رزق هذا الطير الجريح في الصحراء سيرزقني بالتأكيد وأنا عندك دون سفر. سكت الشيخ قليلاً مفكراً في حال الشاب ثم قال: ولكن يا بني لماذا اخترت أن تلعب دور الطائر الجريح في هذا العالم، لماذا لم تختَرْ أن تكون الطائر القوي الذي يساعده؟ يا بني كن أنت صاحب اليد العليا ولا تكن صاحب اليد السفلى.

أم سفيان تفرك يديها.. ملابسها مجعدة.. رائحة الخل تنبعث منها.. نظراتها حزينة.. فآخر العنقود للذكور منغولي، كما يسمونه، وابنتها الكبيرة متزوجة في القائم، وخديجة الصغرى تضع أخاها حمودي الأكبر منها في حضنها.. وباقي قطع الصابون الملونة والأشياء الجميلة والميداليات مضمومة في القاصة... سفيان لم يرجع لحد الآن ولا يوجد سوى حمودي بالبيت... والأم لا تقف بحذاء التنور، وإنما تنظر في الفراغ وتفتت الفراغ بين أصابعها.. فكرتُ بأن الله إذا كان يراها على تلك الصورة فيجب أن..... أستغفرالله لا أعرف ماذا أقول؟

[بعض الجمل أحذفي بداياتها أثناء تبييض مسودة الرواية فتتماسك وتصبح أكثر قوة.. هذه الجملة مثلاً (أنجع الطرق للقضاء على القلق هي ترتيب خزانات المطبخ ودواليب الملابس) أفضل حذفها، فتبدأ الفقرة مباشرة بعبارة(دائماً ثمة شيء فائض لم نتخلص منه)، أيضاً يمكن حذف الجملة التالية في فقرة أخرى (سلق الرز هو من أسهل

دروب الطبخ والنفخ بالنسبة لأمي، ولكن بالنسبة لفتاة عروس تطبخه للمرة الاولى، هو أصعب من النظرية النسبية)، فتبدأ الفقرة مباشرة بجملة (أوائل زواجي)..... ولا تخافي من الحذف، الحذف مهم بقدر الكتابة.. فاسألي نفسك دائماً، هل أحذف عندما لا شيء قد يتغير إذا كتبت ما حذفته؟ الحذف أفضل في هذه الحالة، فاكتبي بالشوكة والسكين، واحذفي بالملعقة يا أورشينا، وابحثي في كل فقرة عما يمكن حذفه أو إعادة ترتيبه ليصبح للكلام موسيقى كالشعر... لم أفهم كيف يجري الحديث بين عبد الملك والمصري، وماريا على التليفون؟؟ هل تقصدين على شاشة السكايب؟ تحتاجين إلى توضيح ذلك يا أورشينا.. أما إذا لم يكن الأمر كذلك، بحيث أنت وراويك انتقلتما إلى عبد الملك، فإن هذا يكون من الراوي العليم، خصوصاً حين تقولين "وجد عبد الملك نفسه في وضع لا يحسد عليه... إلخ"، إذا أردت الإبقاء على ما قدمتِه والانتقال إلى الحدث مع عبد الملك، فلك أن تقولي مثلاً على لسان (ماريا): حكى لي عبد الملك... إلخ. أو لك أن تُبقي على سماع (ماريا) ما يجري من التليفون وتقولي على لسانها مثلاً: "أحسستُ أن عبد الملك قد وجد نفسه في وضع لا يحسد عليه... إلخ"..... هناك أمر مهم آخر يا أورشينا.. لقد تهكم عبد الملك في الفصل السابق على ماريا لأنها وقعت بالتناقض، لم نعرف رأيها هي بهذا التناقض؟، بالنسبة لربط بخة الماء على الرز بحكمة النساء واستهتار الرجال هل نحن في اليوم العالمي للمرأة هـا !!!!! هههههـ. حكاية الطالب مع الشيخ مؤثرة جداً ونهايتها ساحرة أرجو تثبيت مصدرها مع باقي الحكايات في نهاية الرواية أما بالنسبة لحكاية ماريا مع الخروف فقد وجدت فيها تناصاً مع رواية أخرى. فاحذري أن تصبح فاتورة التناص ثقيلة يا أورشينا]

-18-

الراوي العليم

كانا يتأملان أحياناً أياديهما وينتبهان لخشونتهما لأول مرة.. سفيان تحولت يده إلى جزء من خشب الأشجار التي يُقلّمها، و عباس تحولت يده إلى جذع ناشف كحزم الحطب التي كان يلمّها.. كانا يظنان أن هذا هو الوضع الطبيعي للكفوف.. وللمرة الأولى عندما كفا عن تشذيب الأشجار ولمّ زبالة الحدائق، ينتبهان إلى الفطور التي ظهرت فيها، ويقلب عباس كف سفيان ليتأكد من وجود كل هذه الشقوق الطويلة في يديه أيضاً.. في الصمت اكتشف كل منهما أن تلك الفطور قد تعمقت مع مرور الأيام، فجعلتها فلاحة الأرض أقسى من الحجارة مقابل ما يعطى لهما من أجور زهيدة، وما تُخرج لهما النساء من الملابس، ومن عشاء الليلة السابقة.

- عطشان واحتاج بعض الماء.... فأين أنت يا محمد؟

- أنا هنا.

كنا ننادي على بعضنا البعض عند الاستيقاظ لكي يتأكد الواحد منّا أن الآخر لا يزال حياً.. ثم جاء هذا الرجل الملتحي واسمه محمد ايضاً. لحن لم نره في البداية، وصوته يتغير باستمرار،

وعباس هو الذي يسمعه أفضل مني.. وينقل لي بعض ما يقول بصوته الخافت.. في البداية كان غامضاً وغير مفهوم، ثم أصبحت تصرفاته لا تدعو للقلق، فكنا لا نخافه.. نحن نسينا أنه قد يكون ذئباً آخر من الذئاب.. أو ربما تجاهلنا ذلك، فأنا وعباس لم نعد نعطي اسماً لأحد، ولا كانت لدينا رغبة في الكلام أو التفكير، لأنه بعد شهر في هذا السرداب أصبحنا لا نستطيع التعامل لا مع هذا الإنسان الغامض، ولا مع غيره ممن يتحركون على هيأة أشباح.. توقف فهمنا لكل شيء على أي وجه كان، كل شيء هنا غير مفهوم.. كل شيء سيّئ.... ومع الخوف والتعب استعصت علينا حتى الأمور التي يجب أن تكون واضحة، مثل تعاطف هذا الرجل معنا.

لم يكن سيئاً، ولا ندري لماذا كان يتفقد أحوال هذين المحمدين اللذين جاءا هنا بدون تخطيط، كان عباس يسمعه يقول بأننا فائضون عن حاجتهم، ولن نفيد الجماعة في تجنيدنا، وخطفنا بالأساس جرى بالصدفة وبدون تخطيط. كأنه يحاول إنقاذنا من مصير غير معروف.... نادراً ما يتكلم، وإذا أراد التحدث معنا فعندما يحل الظلام.. يريد أن يعرف كل شيء عنا.. ويستمع أحياناً إلى قصتنا، ويسألنا إن كنا نريد شيئاً يجلبه إلينا.

- لماذا يفعل ذلك؟

- لا أدري.

- أين نحن؟ ألا زلنا في بغداد؟

- نعم يا محمد.. نحن في بغداد.. أنا أصلاً أسمع صوت مؤذن جامع أم المعارك، وأحياناً يصلني صوت المذيع يتحدث بصوت عال من الراديو عن التعايش والتسامح وما أعرف شنو.

- ماذا يحدث لنا؟

- لا أدري.. هناك رجال يتحدثون عن سيارة جاءت تواً من الحدود.

- سمعك يا عباس قوي جداً..

- اششششششش.. لا تقل عباس.

- .....

- لماذا لا نهرب؟

- كيف نهرب من هنا؟

- ألا ترى ذلك الباب والرشاشة؟

- نعم

- أنا أراقب هذا الباب منذ أيام ولا ارى أحداً يدخل ويخرج منه في الليل.

امتلأ رأس سفيان بأحلام تشبه الشخابيط، وحلم بأنه يقطع كرة القدم إلى نصفين، وبدلاً من أن يجد الهواء داخلها وجدت احشاء داخلية وقطع لحم صغيرة ومصارين ودماء.. كانت المصارين تشبه

تلك الأجزاء التي يأكلها الفدائيون الذين دربوهم على أكل اللحوم النيئة قبل الحرب. ومنهم أخوه عثمان الذي كان يغيب عن البيت في معسكر التدريب.. كما جاء رفاق له ووضعوا المتاريس وأكياس الرمل أمام معسكر أبو غريب وباقي المباني الحكومية بين كليتي الزراعة والطب البيطري.... وعندما قامت الحرب أشعلوا إطارات السيارات للتمويه على الطائرات.. الدخان يتصاعد والقصف مستمر.. وبعد القصف جاءت الدبابات الأمريكية، وبعد الدبابات جاء الفرهود.، وبعد الفرهود سمعوا أصوات الانفجارات المتأتية من إتلاف أسلحة الجيش العراقي. كانت الأسلحة تطقطق ليل نهار مشتعلة في النار، وبيع بعضها بأبخس الأثمان، ويتذكر سفيان أن أباه قد جاءهم وقتها برشاشتين سعر الواحدة منهما بـــــ.....؟.

نسي سفيان كم كان سعر الرشاشة، و لكنه لم ينس قرط أورشينا الذهبي الذي وضعه على المغسلة الخارجية لبيت الصائغ عندما ذهب للحمام؟؟ طلب سفيان من عباس أن يعثر على القرط الحلقي عندما يعود إلى بيت صهيب الصائغ، وأن يعيده لصاحبته. عباس قال له: سنرجع سوية إن شاء الله، فقال سفيان: إذا لم نرجع سوياً فها أنا أخبرك بمكانه.. إنه موضوع على المغسلة قرب فرشة أسنانك... قد تكون أمك قد رأته وضمته عندها، فأرجوك أن تأخذه

منها، ثم تعيده إلى أم يوسف في حال رجعتَ أنت ولم أرجع أنا..
قال عباس: سنرجع سوياً ونذهب إلى بيت أم يوسف سوياً..

فز سفيان مذعوراً عندما شعر بأن ذلك الحارس قد عاد وأصبح واقفاً في الباب.. إنه يختفي عدة ساعات أحياناً كما يقول عباس، ثم يعود فجأة كما يقول سفيان، ويخشى أن يكون هناك عندما يحين الوقت لصعود الدرج.

-19-

بعد عشرين عاماً

دخل فتى صغير قصير القامة إلى محل للتسوّق، كان في طريقه للمدرسة، وقد توقف لشراء كيس من رقائق البطاطا.. على مقربة منه مطعم في واجهته صندوق كبير من الزجاج تتدحرج منه علب المشروبات الغازية إلى أسفل بعد وضع النقود.. كان محلاً لفلافل الحجي محمد ناصر فيما سبق.. وكان يبيع أيضاً لفات الهمبركر غالي الثمن، وهو الآن مطعم كبير يجاور الدكان الذي تحول إلى سوبر ماركت، وأصبح خالياً من مالكه القديم المسن محمد العطار. ركن الرجل الكهل دراجته خارج المطعم على الرصيف، وبعد قليل وقف الفتى قصير القامة، وطلب من الرجل الكهل أن يساعده في وضع النقود لشراء علبة ببسي كولا، لأنه لا يستطيع بلوغ قمة هذه الآلة الحديثة، ولا يعرف كيف تعمل.. قال له الرجل الكهل ذو الدراجة: أنت أعرف مني بهذه الأمور، فأنا درست على ضوء مصباح النفط، والمدير قال لنا في أول يوم من الدوام لا يدخل أي طالب للمدرسة، إذا لم يحضر طابوقة معه. وبقيت أنبش بالخرابات للعثور على طابوقة، وكذلك فعل غيري حتى جاءت كل المدرسة بالطوابيق التي بنى بها المدير سياج للمدرسة. وفي مرة أخرى قال ليأتِ كل واحد منكم بكونية، وجاء الجميع بالكواني التي ملأناها بالرمل و جعلنا

منها متاريس وحواجز للحرب.. هكذا قضيت دراستي وحياتي.. وأنا لا أفهم يا ابني في آلتك الحديثة هذه.. وأجلسُ ثاوياً هنا على دكة الرصيف لأني متعب جداً.

البيوت جميعها تحولت إلى عمارات قبيحة تشبه القلاع، ما عدا بيت المخابيل الذي طالما طرقت بابه في الماضي ولم يرد علي أحد.. بيت ماريا أم يوسف بقي على حاله هو الآخر، وبدا ككوخ أليف وسط تلك البنايات العالية. اختفى منه نبات الياس، وحلت مكانه شجرة برية عملاقة الحجم تغطي الباب التي تغير شكلها كثيراً.. انقطعت لسنوات طويلة عن المجيء، ثم تغيرت الظروف، ورجعت إلى الزقاق أكثر من مرة لسؤال صاحب المطعم أو السوبر ماركت عن بيت ماريا.. وأجابوني دائماً بأنه كان فارغاً لعدة سنوات، احتله المهجرون عدة مرات، ثم قامت الشرطة بإخراجهم منه.. والحارس الذي كان يحرسه قد مات، وهناك امرأة تكررت زيارتها للبيت للاطمئنان عليه، وهي قريبة أم يوسف التي تقيم الآن في لندن..

صعد الرجل الكهل إلى دراجته الهوائية يحدق في أبواب البيوت التي تحولت بسبب نظره الضعيف إلى غواش شديد.. أطلق يديه إلى مقود الدراجة وسار بها، فشعر بأنه يرتفع من مكانه.. بينما الشارع هو الذي كان يهتز بفعل المطبات الكثيرة التي اعترضت دراجته باتجاه بيت ماريا أم يوسف.. لقد ابتعد عن المنطقة بأسرها،

ولا يأتي إلا بين حين وآخر، ينظر في وجوه الناس الذين يمرون.. في عيونهم يقرأ قصة قديمة لا تزال موجودة.. وهم أيضاً ينظرون له ولكن باستغراب.. ربما لحيته البيضاء الكثيفة هي السبب.. انتبه الرجل الكهل للفتى الصغير الذي طلب مساعدته قبل قليل، وبدأ بالاستماع إلى المحادثة التي يجريها الفتى طالب المدرسة مع امراة جميلة خرجت من بيت ماريا. يبدو أنه غريب عن الزقاق.. قال الفتى:

- أيمكنني العمل لديك في حديقتك؟ إنها مهملة جداً.

- ليس الآن.

- سأقوم بالعمل بأجر بسيط؟

- قلت لك ليس الآن، لا أحتاج إلى البستنجي في الوقت الحاضر.

تقدّم الرجل الكهل صاحب الدراجة من الفتى.. قال له:

- ألست ذاهباً للمدرسة؟ لماذا تتلكأ هنا وهناك...

كان صوت الكهل يرتجف قليلاً، وكأنه في حالة شديدة من الارتباك:

- لا تكن أعمى يا ابني. طريقك ليس من هنا، فهيا اذهب للمدرسة..

تولى الرجل الكهل إلى الظل، وراح يتتبع مسار الفتى تظلله الأغصان الحدائق التي احترقت قليلاً بسبب الحر الشديد. لا

يبدو الفتى مستعداً للسير في طريقه المألوف.. والتفت أكثر من مرة باتجاه الرجل الكهل الذي كان يتابعه حتى رآه يعود ويتخذ مساره باتجاه المدرسة.. لا زالت تحمل اسم القسطل للتطبيقات.. ويردد طلابها وقت الاصطفاف صباح النور والسرور على عراقنا المنصور؟ وعندما كان يمر بها قبل عشرين عاماً كان يصل بعدها إلى مدرسة القدس للبنات، فيسمع ضحكات جعفر الذي اكتشف الممثل (أبو حنج)، وقلده قبل الجميع.

من تكون تلك المرأة الجميلة التي خرجت من بيت ماريا. المفروض أنها انهار، وقد تجاوزت الأربعين من العمر.. رآها تغلق الباب التي أصبحت خفيفة، ويمكن غلقها بنفخة هواء.. رآها وخمن أنها هي..

بصوت عال صاح الفتى بفتى آخر التقاه:

- وين رايح؟

- وأنت وين؟

- إلى المدرسة.

كان لا يزال يتلكأ في الزقاق، وعندما رأى الكهل ينظر إليه، ضحك وصاح:

- كم الساعة الآن؟

- نعم؟

- الساعة؟

لم يسمع السؤال جيداً في البداية.. هو سارح بأفكاره، وشاهد حي على تلك الليلة الرهيبة، ويواصل التفكير بها ويرتب أحداثها كما لو كان يروي فلماً من الأفلام لنفسه، وما يعطيه الله لا يأخذه مرة أخرى. وقد يأخذه حسب حكمة يجهلها البشر.. فلقد كان الهروب مفاجئاً، ولا أحد في الزقاق يعرف شيئاً عما آل إليه الأمر بعد ذلك.

-20-

بعد الغروب

كان من السهل على أنهار أن تعود إلى العراق الذي عاشت فيه خالتها ماريا أم يوسف ستين عاماً.. لقد أطلقت عليها أمها المسيحية نيلوفر هذا الاسم بعد مشاهدتها لفلم (قصة الحي الغربي) عام 1961، وكان يقدم قصة توني وماريا وهما يقعان في الحب من أول نظرة في حفلة راقصة.. دارت أحداث القصة في حي للمهاجرين وسط نيويورك القديمة.. اعترض على هذه الحب كل الأطراف بسبب الاختلاف بالعرق والدين والطائفة، ثم يدور الصراع بين مهاجرين من أمريكا الجنوبية والسكان الأصليين. وتقدَّم الأحداث على شكل رقصات وأغان، يتحدى فيها الثنائي العاشق كل التهديدات، ثم يخططان للهرب وإنقاذ هذا الحب، لتنتهي قصتهما نهاية حزينة كما انتهت مسرحية (روميو وجوليت)..

الصورة في يديها أُلتقطت أثناء تحرك القطار، في نهاية رحلة قصيرة لزيارة خالتها ماريا في لندن. انتقلت مع ابنها يوسف الى هناك بعد أن كانت مع زوجها عبد الملك في مصر.. تلفتت عيونها، ثم غلبها الشوق فبكت، قبل أن يبارح القطار مكانه إلى المطار... أولاد يوسف التوأمان هما نسخة من جدهما عبد الملك.. لهما الضحكة العريضة نفسها، ورموش العينين الكثيفة، مع وجه حنطي اللون يميل

إلى الاستدارة.. تعلقتْ أنهار بهما خلال تلك الزيارة، والحمد لله أنهما كانا نائمين في العربة، وقت تحرك القطار من محطة فيكتوريا إلى مطار كاتويك.. فالتقط لها ابن خالتها يوسف هذه الصورة الأخيرة قبل مغادرتها لندن.

أطفأتْ الموبايل على الصورة التي بعثها يوسف قبل قليل.. والتفتت بعينها إلى الحديقة.. النخلة وحدها لا زالت على قيد الحياة.. مع بعض النحل والدود والفراشات. لا تستطيع أنهار أن تخبر خالتها ماريا بذلك، أو بأي شيء حول ما حصل للبيت.. هي تظن أن هناك من يتابع أمر البيت أولاً بأول، وأنه الآن كما كان عليه الحال عندما دخلنا إليه أنا وأفكار وأسرار في يوم عيد ميلادي ومعنا زينة الميلاد.. كانت أسرار تضحك في غفلة مني، ولكني كنت أراها في المرآة.. ضحكها كان على ارتباكي بسبب نظرات الفلاح الصغير المصوبة نحوي.. بينما هي تنتقل بين الثريات، وتعلق الزينات في أرجاء البيت الذي يعج بالألوان البهيجة والسجادات الأنيقة والستائر السميكة التي تنغلق فوق ستائر شفافة بيضاء اللون.. خالتي ماريا إذا أوصت زوجها بشراء قداحة للطباخ، يذهب الرجل ليشتريها، ويجيء بها نيلية مائلة للسواد، والباكيت ممزق متسخ، مغلوباً بنصف دينار. أما إذا ذهبت هي تشتري قداحة الطباخ، فإنها تقول للبائع:

- ناولني واحدة بيضاء، أو وردية، أو زرقاء فاتحة اللون بحافات بيضاء؟

تريدها أن تنسجم مع لون الشيالات وستارة المطبخ. وقد تضعها في قدح مورد قرب النافذة، وفي هذه الحالة يجب أن تنسجم مع ألوان الأصص التي تزرع فيها بذور الريحان والنعناع والجرجير. الدنيا قد انقلبت... ولم تعد الحدائق مشذبة مثلما كانت، ولا الألوان متناسقة كما ينبغي، ولا الشوارع نظيفة وممهدة بشكل سالك يمكن عبوره بسلاسة.. وخالتي ماريا لازالت تريد التأكد بأن كل شيء على ما يرام في بيتها القديم، وربما تظن أن الأباريق الخزفية تلمع فوق رفوفها، وسنادين الورد لا زالت تروى الماء بانتظام، وقوس الياس يزهو بلونه الأخضر.

دق الجرس رجل كهل بلحية بيضاء.. يعرج قليلاً في مشيه..

- ممكن سؤال واحد؟

كان ينظر الى البيت بإمعان ليتأكد.

- حمداً لله على سلامتك أولاً؟
- الله يسلمك أخي، ولكن لا صغراً بك من تكون؟
- اعذريني.. هذا بيت أم يوسف؟ صح؟
- نعم.

- هل أنتِ..؟

لا زلت واقفاً لا استطيع العودة.. أنهار هذه جميلة.. والمفروض أنها في الأربعين من العمر، ولكنها تبدو أصغر من ذلك. إنها على وشك الصعود للسيارة.

- هل أنت أنهار؟

- نعم.

- أعتذر أذا قمت بتأخيرك عن الخروج، ولكن هل تذكرين عباس وسفيان؟

- .....

- قبل عشرين عاماً خطفتهما عصابة.. كان الوضع أقل سوءاً مما هو عليه الآن.. ولكنه كان خطراً أيضاً وقد كانت العصابات تخطف الناس بسبب الأسماء.

- الاسماء؟

- نعم.

- لا أفهم شيئاً.. من أنت، وماذا تريد؟

- إنها قصة طويلة..

- أنا مستعجلة قليلاً. هل يمكن....

- أنا فقط أحببت الاطمئنان على خالتك أم يوسف.

بدا بعض الاهتمام على أنهار فنقلت موبايلها من يد لأخرى:

- هي بخير والحمد لله. وأنت من تكون؟ هل قلت سفيان و عباس؟ غريبة! كأنني أتذكر قصتهما.

- كانا اثنين.. وعندما سألوهما عن أسمائهما قالا محمد.. أنا محمد وصديقي محمد أيضاً.. صلوات على محمد.. قال لهما رجل يشبه الثعلب. بعد ذلك أخذ يقلّب بالموبايلات فوجد في الأول أسماء شيعية مثل أم حسين وأم حمزة وأم عبد الزهرة... وفي الثاني اسماء سنية كأم مروان وأم عمر وأم عثمان وأم بكر..

- غريب فعلاً.. هل كانت عندهما موبايلات في ذلك الوقت؟

ابتسم الكهل لملاحظة أنهار، ثم قال:

- وقد سألوهما لمن يعود كل موبايل؟ موبايلاتهما متشابهة إلى حد كبير.. الجواب بالصدق قد يعني النجاة.. وقد يعني الهلاك.. عباس كان متعلماً، وسفيان كان ذكياً.. فقال الأول هذا موبايلي وهذه أسماء زبوناتي.. وقال الثاني لا لا هذا موبايلي أنا، وهذه أسماء زبوناتي.. أجوبتهم كانت مشوشة.. فشوشتْ الخاطفين أكثر.. وقال الرجل الثعلب: هسة فهموني، منو الشيعي ومنو السني؟.. قالا له اثيناتنا سنة وشيعة.. آني أبوية سني وامي شيعية، وهو أبوه شيعي وأمه سنية.. لم ينقذهما طبعاً هذا الهراء الذي تدربا عليه كثيراً.. ولا استطاعت المسرحية التي مثلاها في بيت الصائغ انقاذهما..

- أية مسرحية؟

بدت أنهار منتبهة لكلامه، فدعته للدخول، وجلست على أرجوحة الحديقة وطلبت منه الجلوس على الكرسي الأبيض.. لكنه خجل منها، وجلس على طرف الكرسي فقط، ينظر إلى رجله وما تحتها من أعشاب تيبست تماماً.

في بيت الصائغ تدربا على تحضير أسماء مستعارة لكل منهما، واتفقا أيضاً على أن يحمل كلاهما اسم محمد. لا عباس ولا سفيان.. وقد التزما بالاسم الجديد لكليهما، والذي لم يتبخر مع الراشديات والدفرات التي نالاها في القبو.. كانا ينامان في مكان مظلم ورطب معصوبي الأعين.. ولا يأكلان سوى خس قذر غير مغسول... أما الماء فكان مزهلجا خابط اللون.. وكانا يتلوثان بالطين عندما يتحركان من مكانهما.

- كيف حدث هذا؟ وماذا طلبت هذه العصابة؟

- المفروض أن يُقتل عباس اذا كان الخاطف سنّياً.. ويُقتل سفيان إذا كان الخاطف شيعياً.

- أوف يا ر بي. وماذا حدث بعد ذلك؟

- القدر انقذهما بطريقة غريبة.. عندما وصلا السيطرة الوهمية تركا الدراجات طبعاً في الشارع.. والخاطفون أيضاً لم يأخذوها.. بعد أيام ظنا بأن الشرطة قد عثرت عليهما في حملة تمشيط عادية..

- تمشيت؟

- تمشيط أختي العزيزة.. يعني تفتيش. فألقوا القبض على الخاطفين، وتم إنقاذ المسكينين عباس وسفيان.

- الحمد لله.

- الحمد لله انهما لم يقتلا، فأفراد الشرطة لم يكونوا سوى عصابة أخرى.. في المرة الأولى تركوهما على قيد الحياة ، وفي المرة الثانية أخذوهما لأجل أن يبيعاهما أو يجنداهما في مكان مجهول. وجدا نفسيهما في سرداب مع فتيان بمثل عمريهما.. وشعرا بأنهما في ضياع تام.. وفي حالة شديدة من الضعف والتعب.. سفيان كان أنفه ينزف، وعباس كان جلده يتآكل لأن قميصه المتسخ امتلأ بالنمل.. وربما دخل النمل الى جوفه. هو كان معتاداً على تفريش أسنانه وغسل يديه قبل تناول الطعام. لا تستغربي ذلك.. فهو كان يعيش في بيت صائغ ثري ابنته تعمل راقصة باليه.

صوته أصبح عالياً وهو يتحدث إليها، وفجأة صمتَ.. ثم نهض من مكانه.. كما لو يريد أن يقود نفسه إلى مكان آخر، خشية أن لا يكون لأنهار وقت للاستماع.. قالت له وهي تنظر إليه نظرة فضول:

- راقصة باليه؟ وصائغ؟ وعصابات.

- .....

- أين تذهب؟ تعال وأكمل لي القصة. ألم ينقذهما احد؟

- .....

- لماذا وقفت؟ اجلس أرجوك.

- أصيب فراس الذي كان معهما بالتهاب حاد في إحدى كِليتيّه ومضاعفات في الأمعاء، فراس كان يريد اللحاق بعبد الله اعز أصدقائه في السرداب، أبوه قتله الأمريكان بعد إهانته في سجن أبي غريب، عمره اثنا عشر عاماً، وصديقه عبد الله هو أول من رفع يده بحماس عندما سألَهم الشيخ ابراهيم "من يريد العودة إلى البيت؟، ومن يختار السفر من السرداب إلى الجنة؟". حتى الشيخ إبراهيم المؤمن ذرف الدموع عليه وعلى فراقه، احتضنه وطبطب على كتفه، وقال: "الوداع يا أبني ملتقانا الجنة". بكى فراس كثيراً عندما ودع عبد الله وقال لنا: "إذا شاء الله وشفيت، فسوف ألحقه."

- أين يلحقه؟

- في الجنة.

- وماذا حدثَ لهما بعد ذلك؟

- من؟ فراس وعبد الله؟

- لا لا لا.. سفيان وعباس؟

- ناما ولم يعرفا ماذا حدث بالضبط، وفي الصباح كان قد اختفى عبد الله من السرداب..

- هل أنت فراس؟

- لا لا.. أنا لست هو؟

- إذن كيف تعرف ذلك كله؟ أرجوك أن تجيبني على سؤال واحد.. من أنت؟ هل أنت سفيان أم عباس؟

- ستعرفين ذلك بعد أن أعيد إليك الأمانة.

- أية أمانة؟ ومن تكون؟ وكيف عرفت تفاصيل هذه القصة؟

- أنا كنت موجوداً هناك عندما تحدد مصيرهما، وانتهت التجربة.

- هل كنت معهما في ذلك السرداب؟

- لقد اختصرت لك قصة طويلة كادا فيها أن يُدفنا أحياء.. ونقلت لك كلام الشيخ الذي كان متعاطفاً معهما، وقال لهما انتهت التجربة.

- أية تجربة؟

- لا يدري عباس وسفيان ماذا يُقصد بهذا الكلام المخيف، فحاولا الهروب خوفاً من نهاية تلك التجربة.. وعبرا كومة الأحجار التي تغلق مدخل البيت، ثم أصبحا يركضان بسرعة رهيبة بسبب الخوف.. الخوف جيد أثناء الركض.

لم يتوقع الرجل الكهل أن يبقى على قيد الحياة حتى يرى هذا البيت يُفتح من جديد.. انقطع عن هذا الشارع لفترة طويلة، ثم عاد إليه يسأل عن ماريا أم يوسف، رحمها الله حية كانت أم ميتة، لكي يعيد إليها الأمانة التي معه. مد يده إلى جيبه أكثر من مرة... انتظر

هذه اللحظة منذ سنوات لم يحسبها.. وفي كل مرة يحمل نفسه إلى هذا المكان، يتدرب مع نفسه على الكلام كما يتدرب على فصل من مسرحية.. يقول لها: عندي أمانة لك، فتقول له: ما هي؟ يقول لها: هذه الحلية، فتقلب أنهار حلية الحلق بين يديها.. ثم تتذكر فردتها الأخرى.. فيسألها هل أنت رميت الفردة الأخرى؟ فتقول له: كلا.... لا تزال معي، لأنها هدية من جدتي نيلوفر ، وهي آخر ما تبقى من أثرها.. وعندما تقلّبها ستروي له بعض حكايات أمها عن سفيان وصديقه عباس..... وقد تقول له بأن خالتها ماريا لم تشك في أن سفيان قد سرقها، ولكن ربما هو أخذها لأخته خديجة لأنه ظنها حلية كذابية لا أكثر.

مد الرجل الكهل يده إلى شعره، بعد أن تردد قليلاً في إعادة القرط، فكر بأن أنهار لا بد قد باعت الفردة الأخرى.. فماذا تفعل بفردة قرط واحدة حتى وإن كانت من إرث جدتها نيلوفر كما أوحى له الحوار الذي أجراه في خياله؟.. طالما تمنى لو تعيدها إليه فتبقى عنده، لأنها ذكرى عزيزة على قلبه ظلت معه طوال عشرين عاماً، استرجع صورتهما وقت الهروب.. ولا أحد يعرف شيئاً عما آل إليه الآخر، ولا أين مكانه؟ أهوال تلك الأيام العصيبة غيرته كثيراً، وأراد بها أن يكفر عن كل ذنب أو خطأ ارتكبه في حياته. هذا ما شعر به، وفكر به وتمناه، بعد أن روى لها الحكاية من الألف للياء، وفعلاً ما تمناه قد تحقق.. وقالت له أنهار، بعد أن عرض عليها

الأمانة، بأن بإمكانه الاحتفاظ بالفردة الثانية، لأن الأولى لم تعد معها..

كان شعره قد أصبح رمادي اللون مائلاً للبياض، أما لحيته فبيضاء تماماً، بحيث يجعله يبدو أكبر منها بكثير.. أخرج يده من شعره، وقال لأنهار:

- هل لا زال أبو يوسف في مصر؟

- كلا مع الأسف.. لقد توفي.

وهي تنهض لجلب قدح من الماء قامت أنهار بالاعتذار مقدماً لأنه لن يكون بارداً.. عادت لتجده قد نهض من مكانه وراح يتأمل النخلة التي لا زالت على قيد الحياة، وإنْ تحولت سعفاتها إلى حطب.. نادته من أجل الماء، وقالت له مرة أخرى آسفة لأن الثلاجة مطفأة.. فعاد ساهماً لا يدري ماذا يفعل هنا... ولماذا يعود إلى مكان قديم هرب منه حتى أصحابه.. رفع نظره إلى الطابق الثاني، فكان مصباح السطح مضاءً.. يجده على هذه الحال طوال المرات التي مر فيها من هنا..

كانت أنهار على وشك الصعود إلى السيارة عندما طرق الباب.. وهي الآن تقف بالقرب منها وعيناها دامعتان.. ظل واقفاً بالباب، وكان منزعجاً من المرأة التي ظنها تفتح حقيبتها الوردية لإعطائه النقود، فوجدها تمد يدها، ثم تُخرجها من أجل المنديل..

باب السيارة انغلق.. هي بقيت على ما هي عليه من جمال، وهو قد شاخ بشكل رهيب. يفصل الخرزة التي يعّدها عند التسبيح عن باقي الخرزات.. فيظهر خيط المسبحة عارياً، ثم يسمع صوت ارتطام الخرزة بخرزة أخرى.. فيؤنس وحشته مثل صوت الساعة .. كل الناس يشكون من تسارع الوقت، ويقولون إنه علامة من علامات الساعة، وهو انقسم نصفين.. نصف بقي كما كان، ونصف تغير كثيراً بعد تلك التجربة. استمر الصمت قليلاً، ثم قال لها: مع السلامة. ومضى يسير بمحاذاة دراجته، وقد كتّف يديه مع طرفي مِقْوَدها، و راح يبتعد عن البيت.

نزلت أنهار مرة اخرى من السيارة بعد أن فتحت الحقيبة وأخذت المنديل.. وجدته قد ابتعد قليلاً، فمضت نحوه تريد أن تستبقيه في الحديقة، نادته لكي يعود.. تعال.. تعال.. أين ذهبت؟ وضاع نداؤها مع صوت انفجار شديد وقع على مبعدة أمتار.. تبعه صراخ وضجيج.. عليها الخروج بسرعة من هذا المكان لأن أمامها طريق طويل لكي تصل إلى بيتها في شارع الصناعة.. انطلقت بالسيارة لكي تلحق به، ثم سرعان ما أبطأت أكثر وأكثر حتى وصلت إليه، وأصبحت بمحاذاته.. حواجز الطريق من الجانبين والوسط أصبحت محطمة في عدة مواضع، لم تكن على الحال الذي هي عليه اليوم قبل عدة أعوام، كانت قد رُمّمت، وازدهرت الأرض

مرة أخرى،، ثم تحطمت من جديد بسبب معارك جديدة اشتعلت بين أحزاب متناحرة..

يبدو أن أنهار لم تزر المنطقة منذ وقت طويل، قال الرجل الكهل لنفسه، ثم توقف فنبهها إلى استخدام طريق فرعي للوصول الى الشارع العام لا يستخدمه المسلحون. كانت تنظر له من نافذة السيارة بإمعان.. سألته قبل أن يبتعد:

- أين ذهبت؟ لماذا لم ترد على سؤالي؟ من تكون لتعرف أحداث تلك الأيام العصيبة؟ هل أنت سفيان، أم عباس؟.

حدث انفجار آخر جعل أوراق الأشجار القريبة تهتز.. والدخان يتصاعد من الشارع العام... التفت إليها وقال:

- أنا الشيخ محمد.

- انتهت -

-5-

أورشينا مرة أخرى

ظلت واقفة قبل أن تطرق الباب خاملة ومختلفة وضحكتها تكاد أن تتحول إلى ابتسامة ضعيفة أصابها الوهن الذي يرتسم عادة على وجوه التلاميذ الذاهبين لأخذ نتيجة الامتحان .. لا يمكنني تفسير مجيئها حاسرة الرأس بدون حجاب سوى بالظلام الخفيف الذي بدأ يلف الزقاق.. لم يعد الفيل موجوداً ولا الغربان، وإنما هناك كائن متوجس اقترب بعد الغروب من باب البيت، ففتحتُ النافذة لكي أراها دون أن أناديها.. فكرت ماذا سأقول لها.. الأمر ليس ببساطة أن أربت على كتفها، لأنها جعلتني أعيش مع أخوة محمد، وجعلتهم يعيشون معي وحولي.. سأفترض أنها تعاملت معهم كما هم على حقيقتهم، ثم عندما جاءت لتسجل حياتهم، كتبت عنهم بحقيقتها هي.. فكرت أيضاً بأن موسيقى الزقاق كانت موجودة بقوة وقت المحنة، ومسموعة بشكل أجمل مما هي عليه الآن، فهل أطالبها بتعميق شخصية ماريا في روايتها، والتوسع فيها لكي نسمع المزيد من أفكارها الحالمة التي اقتربت من الغناء؟ هل أسألها لماذا حولتها إلى أسطورة، وأحاطتها بالكثير من الرقة واللطف والإنسانية؟ هل كانت ماريا ترفض مغادرة بيتها حقاً، أم صممت لها أورشينا قلباً عاشقاً للمكان كقلبها هي، فاحتل هذا المكان البطولة في

روايتها الاولى؟، أم انها كتبت كل ما كتبت من منطقة الخيال التي ارتفعت فيها قليلاً فوق عش أرضي له أكثر من روح ووجود؟ ليس عيباً أن يحسن الكاتب الظن بواقعه فلا يتذاكى أو يتكبر عليه، بل العيب هو أن يضع كل سيئات الدنيا فيه، ويدعو القراء لكي يظنوه وكراً للشياطين والكاتب يحلق فوقه مثل الملاك.

المسافة بين الحقيقة والحلم ليست كبيرة.. فمنطقة الخيال تأتي من الواقع، بدليل أن كُتّاب الخيال العلمي لا يرسمون مخلوقاتهم الفضائية بدون عيون وأجسام مثلنا.. نحن محبوسون في بيت الواقع حتى وإن ذهبنا إلى غرفة الخيال.. كل شيء في الحلم له أصل وفصل.. له جذر وفرع، وحتى وإن قلبت أورشينا روايتها على بطانتها، أو جعلت قاعدة الهرم قمته، فستبقى ذبذبات من نفسها وواقعها منتشرة فيه.. ترمي نفسها على قارعة الطريق.. تغير صوتها أكثر من مرة.... تعيد نفسها إلى مكانها الأول.. مهما فعلت فأن تعاطفها سيكون واضحاً مع الطيب والشرير.. وماذا بعد؟.. قامت أورشينا بتحويل سفيان وعباس إلى صورتين من البراءة للتعبير عما يحدث في العراق، فهل أطالبها بإصلاح اضطراب الزمان في بعض الفصول، أو أطالبها بتعميق شخصيتي (سفيان) و(عباس) مما يعني التضحية ببساطتهما وعفويتهما.. هل أطالبها بتأكيد حضور بيوت وأهلها، حياتهم وأصدقائهم وأحلامهم، أو الاستفاضة في الكتابة

عن أعمال العنف وحوادث الخطف للكثير من أبناء الشارع، لكي لا يأتي خطف سفيان وعباس غريباً. هل أطلب منها التقليل من الكلام العامي حتى ضمن الحوارات الشفاهية للشخصيات، وأن تحرص على أن لا يتسلل إلى الرواية إلا عند الضرورة القصوى، وأخبرها بأن واحدة من هذه الضرورات هي أن تسعى الرواية في طلب التهكم والسخرية، فتقوم المفردة العامية، على قلة شأنها، بكسر جدية الجملة، وبعثها من جديد في تعبير مختلف ومباغت يعمل بنسق مختلف عن الكلمة الفصيحة للمعنى نفسه.

أستغرب لما فعلته أورشينا.. قالت لنا احلموا.. فحلمنا دون أن نعرف أن نناماً، سيحدث شيء سيّئ بالتأكيد.. مع هذا أغمضنا عيوننا وتمسكنا بصفة قد لا يحتملها هذا الوضع السيء أصلاً هي صفة الحالم.. فتحت عيني .. وقلت لن أعلق بشيء حول الرواية.. ولن أسألها لماذا غضت الطرف عن ملابس الأبطال وأشكالهم وسحنات وجوههم... بل سأطلب منها فقط أن أقرأ فصل الرواية الأخير مرة أخرى بعد أن تفرد مساحة للأمريكان الذين مال جعفر إليهم لأنهم يعطونه أحياناً الماء والعصائر وغير ذلك. يجب سبّهم مثلاً حين يمرون بالشارع، فهم الذين قادوا البلد إلى الكارثة.. وجعلوه يغرق في الفوضى و يقترب من الحرب الأهلية، بل أصابه العته والتعب واليأس من تلك الفوضى،

والانقطاعات الطويلة للكهرباء في أيام الصيف اللاهبة. و بسببهم أيضاً بدات الحياة اليومية للناس تجتاحها أحداث وظواهر غير عادية، كالإرهاب والاختطاف والنزوح..

اقتربت أورشينا من ضوء نيون الممر الطويل، فلفت انتباهي نحولها الشديد الى درجة الاختفاء داخل تلك الهوام التي تتطاير حولها بسبب الضياء الحاد للنيون ... عادت علياء تركض كل يوم من بيت المخابيل لتحتضن أورشينا وقت الغروب.. ولم أعد بحاجة أن أسأل أورشينا لماذا تجد عندها الملاذ والأمان بعد ثلاثة أيام من رحلتي مع أشخاص من الواضح أنها قد كتبت عنهم لكي تجعلنا نحبهم، غير أني بحاجة لسؤالها.. لماذا تناديها بخولة أم عيون الجقلة:

-بالنسبة لخولة قد يكون السجع هو الذي تحكم بهذا الاسم.. بالنسبة لعيوني. ألم تلاحظي ما بها.

-ما بها عيونك يا أورشينا؟

-أصابت عيني اليمنى شظية في قصف صاروخي أصاب مدرستنا في الثمانينيات، فاستبدولها بعين زجاجية.. وعندما كبرت قليلاً سقطت تلك العين من وجهي أمام أولاد الزقاق، فخاف مني الأطفال وأصابهم الذعر.. وظلت علياء تناديني بهذه الصفة التي أطلقها عليّ باقي أولاد الزقاق، وهذا هو ديدن الذين يربطون تعاريف الناس بممتلكاتهم أو عاهاتاهم، فيطلقون عليهم أسماءً غير

أسمائهم الحقيقية. إنهم يفعلون ذلك بحكم طفولتهم، ولا يعرفون ماذا يترك هذا من الأثر. عليهم فقط أن يقاوموا كل خوف أو نقص بالضحك. حياتهم هي عبارة عن سلسلة من هذه الأهداف اليومية الصغيرة، والباقي متروك للقضاء والقدر وليس للشيخ محمد.

-ماذا يعني هذا؟

-ذات يوم طلب الشيخ محمد الأعمى من سفيان أن يحمله على دراجته لأنه متعب.

-لقد اختلفت صورته في الرواية وأصبح يرى؟

-وعندما يأتي إلى الزقاق بعد عشرين عاماً لن يتعرف عليه أحد إلا إذا حذف لحيته البيضاء وشعره الأشيب. حدث هذا في ختام الرواية طبعاً، أما في الحقيقة، التي لم أتعامل معها كما هي تماماً، فإنه شاب أعمى يعرف طريقه من الجامع إلى البيت من خلال خريطة فطرية للغاية تُشكلها عثرات ومطبات وعوارض الطريق.. ويستطيع بواسطتها الوصول إلى بيته في طرف الزقاق حتى وإن جاء من جوف الأرض.. ذات يوم طلب من عباس حمله على دراجته وإيصاله إلى البيت، فضاع من الشيخ محمد الطريق، وظل حائراً لا يعرف أين يقع بيته. بوصلته وخريطته كانت هي أكوام التراب والحجارة التي تعترض عصاه فيتفاداها.. ولولا أن نهق الحمار الذي يجر عربة النفط، لما وصل إلى منزله الذي يقع في طرف الزقاق.

-قلت قبل قليل إن سفيان هو الذي أوصله وليس عباس؟

-أحدهما هو الذي قام بذلك، ولست متأكدة هل هو سفيان أم عباس.. أصبحنا نراهما يطرقان الأبواب بعد ذلك بحثاً عن العمل، ثم أصبحا يأتيان كل يوم إلى الزقاق لتشذيب حدائق بيوته. سفيان وعباس تعرفا على سكان هذا الزقاق بسبب الشيخ محمد.. ثم اختفيا فجأة مثلما ظهرا فجأة

-هل شارك الشيخ محمد في الخطف أم في الانقاذ..كان متعاطفاً معهما، وقال إنه أراد أن يكفر بهما عن كل ذنب أو خطأ ارتكبه في حياته.؟ أما هما فلم نعرف شيئاً عما آل إليه كل منهما، ولا أين مكانه؟ لماذا جعلت مصيرهما غامضاً في الرواية؟ لماذا أبقيت الباب مواربا؟

-.....

-لماذا لم نعرف ماذا حدث لسفيان وعباس يا أورشينا؟ هل هما أحياء مثلاً؟

-.....

-و إذا كانا أحياء، فكيف كانت لهما فرصة للنجاة في ظروف صعبة وسيئة للغاية؟

-.....

-مابك يا أورشينا؟

-.....

لمعت عيون أورشينا، ثم تحولت غصتها إلى بكاء:

-.....

نزلت الدموع تجري على وجهها.. فنهضت من مكاني، وأصبحت أنا التي أدور حولها بعصبية:

-رويدك يا أورشينا.. لماذا لم تشرحي ما يوجد في رأسك جيداً، وهل القارئ عرّاف أو فتاح فألٍ ليعرف ماذا حدث لهما بالضبط داخل السرداب، أو كيف وصل القرط إلى الشيخ محمد؟ هل تركه سفيان أمانة عنده قبل الهروب؟

-لقد غلبتني العاطفة وبكيت بكاءً مريراً، فلم أشأ أن اجعل القارئ يبكي كما كنت أبكي وأنا أحاول أن أشرح ماذا حدث لهما. ترددت كثيراً في فتح الباب.. فكان سفيان وعباس يصرخان بي بصوت عال: يلّه عاد دِفْتحي الباب.. الله يخليك افتحي الباب.. ليش مدتفتحين الباب؟

زاد بكاؤها حتى أُجهشت، فذهب عني الغضب، و أخذت أبكي معها.. ثم حملتُ لها المناديل التي كانت تغرق بالدموع وهي تحاول شرح فكرتها، فكنت استبدلها بغيرها وتبلل من جديد. لأول مرة انتبه إلى خلل في عيونها. لأول مرة تبكي أورشينا فيظهر العيب

جلياً أثناء البكاء.. سألت نفسي هل كانت عينها اليمنى على هذه الحال من التلف منذ رأيتها أول مرة؟ كأنني لا أدري كيف كانت بالضبط، ولا عرفت من أمرها شيئاً سوى كونها فتاة مرحة وغريبة الأطوار تهكمتْ حتى بشأن رسالتها من الكتابة.. بل مزعجة أريد الهروب منها أحياناً.. ثم بعد ذلك أجدها كائناً بسيطاً يطلب الحياة بطريقة الأقل هو الأجمل، بحيث لا يُكدس المظاهر فوق بعضها البعض إرضاءً لتوقعات الناس عنه، وحتى عندما يكون هذا الكائن امرأة كأورشينا، من الصعب عليه أن يرضى بالأقل فيما يتعلق بشكله، فإنها قد حافظت على جمالها عندما شرحت قضية نقصها وعينيها بشجاعة، وكأنها تتحدث عن شخص آخر.

أعادت لي أورشينا الحياة كما تريدها هي، وشرحت لي بأنها كانت تريد لعباس أن يكون موجوداً أينما يجب أن يكون صديقه سفيان، حتى وإن كان الأخير هو السبب في خطفهما من الأساس لإصراره على عودته إلى أهله وقت الغروب.... قالت لي بأن المكان الذي أصبحا فيه هو ليس نفسه في المشاهد السابقة التي قررا فيها أن يتحول اسميهما إلى محمد ومحمد..... محمد ومحمد يجلسان على الأرض وقد أصبح الوقت ليلاً، والإضاءة خافتة وكئيبة.. قلوبهم تدق دق الطبول، وآذانهم تطن بصفير متصل، والموبايلات المتشابهة إلى حد التطابق قد تبادلاها عن طريق الخطأ قبل أن يخرجا من بيت

الصائغ الصابئي أصلاً... لقد جاءت عصابة أخرى، ووضعتهما في المقعد الخلفي للسيارة، ولم يقطعا مسافة طويلة بعيداً عن التقاطع الذي خُطفا فيه أول مرة، حتى أن عباس استطاع تقدير ذلك بالرغم من وجود عصابة على عينيه.. فقد اقشعر بدنه لسماع قرقعة عربات النفط في محطة البنزين.. شم رائحة النفط أيضاً.. وتأكد من أنهما لا زالا قريبين من البيت. بعد الوصول وضعوهما في سرداب ليس فيه نافذة. وقرب بابه غرفة حراسة وكرسي ورشاشة.. عباس سَمْعه قوي جداً، وقال همساً لسفيان بأن هناك رجل منهم لا يوافقهم الرأي.. يتجادل معهم مختلفاً عن أفكارهم، ويحاول إقناعهم بإطلاق سراحنا، قائلاً لهم بأن الموقع لا يريد إلا المتطوعين، ولا يعمل بهذه الطريقة... نحن عباس أنهما ليسا مع عصابة خطف تطالب بالفدية، ولكنهما مع تنظيم متنفذ يريد شيئاً آخر. فلم يكن هناك استجواب، أو تحقيق طويل معهم.. فقط رجال يتشاورون فيما بينهم من بعيد، وأحدهم يحاول اقناعهم بإطلاق سراحنا..

قالت لي: لقد حذفتُ عبارات كثيرة مؤلمة كانت توحش قلبي، وتجعلني أبكي.. فعباس كان يجري محادثات في الخيال مع أبيه، ويقول له: بابا لا تشيل جلكان النفط وحدك.. إنه ثقيل جداً عليك. أنا أشيله بدلاً عنك.. من يساعدك بعدي.. هكذا كان يفكر مع نفسه وهو ينزل من عينيه ألف دمعة ظناً منه بأنه لن يرى أباه بعد ذلك،

ولن يرى أمه أيضاً.. ستعمى عيونها من البكاء مثلما تعمى عيون أم سفيان، وأنا أيضاً تورمت عيوني من البكاء.. فهل أجعل عيون القارئ تتورم أيضاً يا استاذة؟ هل أملأ قلبه قهراً على عباس وأبيه المسكين الذي يبكي كلما ذهب يملأ خزان النفط من المحطة، أو أحطم قلبه على سفيان وأمه المريضة التي لم يتبق لها من أخوته سوى ابن معوق.. وأيضاً خطر على بال سفيان أمر غريب جداً عن حسوني الأعرج.. كانت لديه رجل واحدة فماذا يفعل بفردة النعال الأخرى؟ حسوني الأعرج كان يركب كل يوم عربة خشبية خلف الحمار ليجمع بها الفائض من أغراض البيوت ويبيعها لمحلات الخردة والأدوات المستعملة.. وقد عاد من الفرهود يجرها محملة بأغراضه واغراض غيره.. أكثرها اجهزة كهربائية عطلت بعد فترة وجيزة من استعمالها.. شيخ الجامع قال إنها تعطل لأنها حرام في حرام.. حتى المولدات المسروقة حرام، وإنها ستحرقنا بنار جهنم في يوم الحساب.. ومع هذا احتفظ بها الناس.. وعندما جاء الصيف اللاهب والكهرباء مدمرة اشترك الشيخ نفسه بخطوط المولدات المسروقة.. فالنوم مستحيل مع الحر والبعوض الذي يدخل حتى من فتحة الأنف.. كان واخوته يتمددون على أرض البلاط (بطرك الفانيلة واللباس). حتى تمنى سفيان لو كان أبوه قد سرق مولدة ينتفعون بها بدلاً من تلفزيون عاطل وكومبيوتر لا يعرفون كيف يستعملوه.

سفيان فكر بكل ذلك وهو في السرداب.... كان يستعيد مع نفسه ماذا فعل بهم الفقر.. تذكر تلك اللطمة القوية على كتفه بسبب عنقود عنب، وأصبحت كل ضربة جرس هي لطمة أقوى تجعل قلبه يرتجف من الخوف ظناً منه بأن صاحب القمرية هو الذي يطرق الباب.. الفقر هو أن يكون خائفاً بسبب عنقود عنب.. وأن يكون أبوه دائم الصراخ والعصبية والتذمر.. لا يقبّل أولاده مرة واحدة، ولا خديجة يمكن أن تقبله، سيكون من الشنيع أن تفعل ذلك، وأحياناً، ولسبب تافه، يمنعها من الذهاب الى بيت صديقتها، أو يضربها لأنها لا تضع الحجاب على رأسها.. كما يجب أن لا يناديها أحد باسمها في الطريق؟ اسمها يجب أن يُنطق بينهم في البيت فقط.. أما خارجه فيجب أن لا تعرف به حتى قطط الطريق.

ظل سفيان حائراً لا يعرف ماذا يفعل حسوني الأعرج بالفردة الأخرى، فقد خرج النعال من حقيبة الست أشذاء بعد عودتها من العمرة، وفي حوزتها الكثير من الهدايا.. و قد أعطت لحسوني الأعرج سجادة صلاة مع ذلك النعال.. فتساءل سفيان مع نفسه ماذا يفعل حسوني بالسجادة أو بفردة النعال الأخرى.. غير أنه لم يسأل عباس ولم تعد لديه طاقة على الكلام في السرداب.. لا يستطيع أن يضحك أو يمزح أو يطرح سؤال النعال على عباس.. طوال النهار والليل كان عباس وسفيان صامتين تماماً ينظران إلى المسافة التي

تفصل غرفة الحارس عن باب السرداب الذي احتجزا فيه، وفي الليل قال عباس لسفيان بأن الرشاشة لا تتحرك من مكانها على الأرض، ولا أحد يدخل أو يخرج من غرفة الحراسة.. هو متأكد من ذلك بعد أن راقب الغرفة عدة أيام في الليل.. إنها مشغولة في النهار فقط، فهيا نهرب سوية يا سفيان.

هنا احترت ماذا أفعل يا أستاذة.. لا شيء في الخارج سوى الصمت التام، وعمود كهرباء عال تجاوره أيكة عملاقة ذات أشواك كثيرة.... اختفت كل الأفكار من رأسي، ولم يبق في رأسي سوى أن أفتح الباب، وأجعلهما يركضان إلى البيت بسلام.. ولكن كيف أضمن أن لا يُقتلا عند الهروب..... كيف أقترب من هذه التفاصيل الموحشة وأنا كنت أريد لهما أن يعودا إلى البيت، هذا كل ما أريد.. ان يعودا إلى البيت وأن يراهما أحبتهما، فيخرجون من منازلهم، ويتبادلون العناق والقبلات والتهاني، يصيحون جميعاً بصوت واحد، الحمد لله على السلامة.. الحمد لله على السلامة.. سفيان رجع.. عباس رجع..

توقفت أورشينا عن الكلام، لأنها أجهشت بالبكاء مرة أخرى وهي تقول:

-أنا أحبهما جداً يا أستاذة. و أريد لهما أن يكونا بخير.. وأن يكون الجميع بخير.

بعد كل جملة تقولها تبكي.. وأنا أبكي معها. ما هذا القهر يا ربي. ماهذه الدموع التي تجري كالجداول على وجوهنا.. حسنا حسناً لقد أجهدنا البكاء. دعي النهاية مفتوحة يا أورشينا.. دعيها كما تشائين.. لا تشرحي أي شيء بعد الآن.. القارئ سيمشي كما تريدين أنت في هذا الزقاق، وسيفهم كل شيء.. اللعنة عليك.. رأسي سينفجر من البكاء.

أخذتني الحمية، فقلت لنفسي، لن أحذف أو أضيف شيئاً إلى حياة انغمست فيها أورشينا، وتعرف نتائجها أفضل مني.. فقط جلبت لها قدحاً من الماء البارد.. فشربته كله في جرعة واحدة سمعت خريرها يجري في زردومها، بينما هي لا زالت تنشج خوفاً من نهاية حزينة جعلت عيونها تتورم من البكاء. ما تلك النهاية إلا صورة رسمتها أورشينا من الخيال.. غير أنهما اختفيا بالفعل في ظروف خطرة للغاية، والخوف لا زال يلازمها من أن يلاقي سفيان وعباس نسخة مشابهة لهذا المصير المؤلم.. ولهذا أبقت باب الأمل مفتوحاً لهما بدون أن تقرع طبول الموسيقى استخفافاً بعقل الخلق، أو انتقاصاً من صنعة الرواية...

أشفقت عليها من هذا الشقاء، وطلبت منها أن يكون للفصل الثاني كَرّةً أخرى في ختام الرواية، فتجعل سفيان يقف عند باب بيت ماريا أثناء حلمها بالرصيف الغاص بالبشر اثناء الكسوف

الكلي للشمس. يطرق بابها ولا أحد يرد.. يُخرج الموبايل من جيبه ويتصل برقم ماريا.. فتستيقظ وتظهر له واقفة في الباب وهي تلعنه على قدومه المبكر.. وسيعني هذا أن الرواية كانت كابوساً أو حلماً طويلاً لماريا، وأن القاريء سيتذكر كل الأحداث الحزينة التي حدثت وكأنها لم تحدث.. هذا النوع من الأمل ليس مستحيلاً ويجب أن نؤكد عليه. على الأقل من أجل تلافي هذه المناحة التي لا تتوقف.. طرحت الأمر برمته على أورشينا لكي تكون هي صاحبة الكلمة الفصل فيه.

-حقاً حقاً حقاً أستاذة؟

- ها؟ لا؟ لا؟ انتظري يا أورشينا؟ لا تنهضي من مكانك.. عليك أن تقرأي ملاحظاتي عن نواقص هذه الرواية، وأن تتأمليها جيداً، أما ملاحظاتي عن انتقاد الإنكليز والامريكان ومن لف لفهم من إخوة محمد.. فلا أعرف كيف أشرحها لك.. يجب أن لا أشرح لك أي شيء بعد أن وجدت عندك كل هذه العاطفة الجياشة تجاه أبطال الرواية الطيبين منهم والأشرار.. إنها رواية حقيقية.. والوقت قد تأخر كثيراً، وقد نظل سوية حتى الصباح سوياً إذا ما بقينا نتحدث عن النواقص والزوائد والراوي العليم لعنة الله عليه.. الأفضل أن تضيفيها أنت إلى الفصل الأخير بلغة التهكم لا التشاؤم.

انفرجت أسارير أورشينا.. وانتابتها القشعريرة، ثم ارتجفت مثل فرخ عصفور يلامسه هواء الدنيا البارد بعد الخروج من دفء البيضة. الحمد لله أنها عادت إلى طبيعتها الأولى، وقد طار الوجوم من فوق رأسها حتى ارتطم بالمروحة وانتهى أمره.. أخذت أورشينا التي عرفتها قبل أيام تتحرك وتدور حولي وهي تتحدث عن فصلها الأخير.. قالت:

-أستاذة.. أستاذة.. أستاذة.. لا أصدق أنك قد قرأت روايتي الاولى؟ وكتبت ملاحظاتك عنها.. كنت سأكون في فوضى عظيمة لولاك.. فما رأيك أن أضيف إلى الفصل الأخير مشهداً واحداً للتهكم، كما طلبتِ، فأجعل منه صيحة غضب وإنكار لما حدث في الدنيا التي اختلت واهتزت بها الأرض.. علياء تخرج من منزلها صارخة وقت الغروب.. صرخاتها هذه المرة مشحونة بالألم والخوف المتراكمين منذ عشرات السنين، فتستغيث بأخوة محمد من الجيران جميعهم. تريدهم أن ينقذوها وينجدوها من هذا الوحش الكاسر الذي يطاردها طوال عمرها.. الجيران استجابوا على طريقتها، وخرجوا عن بكرة أبيهم ومعهم أولاد الحدائق متشابهين في سحناتهم وملابسهم الترابية.. متجذرين فوق دراجتهم كأشجار تنمو وتنمو وتنمو، وعندما تسقط إحدى حباتها على الأرض تتحول إلى شجرة جديدة تكبر متخذة شكلهم مرة أخرى.. سيبدؤون بالركض والصراخ خلف علياء، فتجعلني أشعر ما معنى أن يتحرك المجنون ويصبح زعيماً روحياً.. القلق المضني مع الإعياء سيكون بادياً للعيان على طبيب المشرحة محمد عبد الكريم وباقي

أبناء الزقاق... وجميعهم يرددون شتيمة واحدة يلعنون بها أرباب الحرب الذين يعرفون أنفسهم جيداً..... سيقولون لهم: أمّداكم*..

-أمداكم؟

-وأمدّانا* أيضاً.

-هههههههه.

-هههههههه.

عادت أورشينا تجري وتدور حولي، تلاحقني وتتقافز لكي تدفعني للضحك بصوت أعلى من صوتها حتى ونحن نقطع الممر الطويل باتجاه الباب لتفتحه.. فتحَ الضحك فجوة في صمت الزقاق وظلامه.. وأصبح يذرع طريقه مثلنا إلى خارج البيت.. لم نشعر بتأخر الوقت إلى هذه الدرجة. فالشارع قد خلا من أي نأمة صوت عدا صفير الليل نفسه.. إنه غارق في صمت عميق لم يقطعه سوى صوت سيارة واحدة.. تقدمت أورشينا لفتح الباب الثقيلة بنفسها دون أن تدعني أفعل ذلك.. توقفتْ قليلاً، ولبثتْ هناك لحظة أو بعض لحظة.. كانت قد أصبحت هزيلة جداً بحيث يمكن لضوء النيون أن يطمس صورتها إلى حد التلاشي في غواش يشبه الغشاء الأمنيوسي الذي يضمن بقاء الجنين آمناً. استغراقها في الضحك أعاقها عن فتح الباب، حتى بدت وكأن هناك أحداً ما يدغدغها.. ظلت واقفة تنظر لي وهي تضحك، ولم تتحرك من مكانها، إلاّ بعد أن وجدتني أتقدم معها لفتح الباب...

الغيوم التي حجبت الشمس قد حجبت القمر أيضاً.. فلم تفصح ستارة الظلام عن شكل سيارة اقتربت وتوقفت بجوار بيت أورشينا.. ونزل منها رجل طويل جداً لا أعرفه:

-من هذا الرجل يا أورشينا؟

مدت عنقها أعلى الباب التي لا زالت تحاول فتحها، وصاحت:

-أستاذة أستاذة أستاذة.. هذا محمد استاذ الرياضيات.. إنه يعود إلى بيته.

انعوجت باتجاهي لتحضني وهي تبكي من الفرح..... في تلك اللحظة سقطت قطرات ماء على يدها، فقالت أورشينا:

-هذا فأل حسن يا استاذة. هذا فأل حسن.

-القطرات على يدي أيضاً. إنه ماء المطر يا أورشينا.

-ظننته العصفور.

-هههههه

-هههههه

أصبحت قطرات المطر تهمي علينا في أول الغيث من نهاية صيف طويل وشاق. وكنا أنا وهي نقف خلف الباب الثقيلة الموصدة نبكي ونضحك في الوقت نفسه.

روايات وقصص

ميسلون هادي

- جانوانت حكايتي، رواية، دار الحكمة، لندن، 2017.
- جائزة التوأم، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2016.
- العرش والجدول، رواية، كاتارا، الدوحة، 2015.
- شاهدتهم وحدي، روايات للفتيان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015.
- سعيدة هانم ويوم غد من السنة الماضية، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015.
- أجمل حكاية في العالم، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014.
- التلصص من ثقب الباب، دار المأمون للترجمة والنشر،مقالات، بغداد، 2013.
- هذه الدنيا كتاب، قراءات، مجلة الرافد، الشارقة، 2013.
- أقصى الحديقة، قصص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013.
- زينب وماري وياسمين، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2012.
- ماما تور بابا تور، قصص خيال علمي إلكترونية،الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2012.

- الليالي الهادئة، قصص،الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2011.
- حفيد الي بي سي، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2011.
- شاي العروس، رواية، دار الشروق، عمان، 2010.
- حلم وردي فاتح اللون، رواية،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2009.
- نبوءة فرعون، رواية،المؤسسة العربية للدرسات والنشر، بيروت 2007. دار أوثر للنشر، لندن، 2011.
- الحدود البرية، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004.
- العيون السود، رواية،دار الشروق، عمّان 2002. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010.
- يواقيت الأرض، رواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، 2001.
- رومانس، مجموعة قصصية، الإتحاد العام للكتاب العرب، دمشق، 2000.
- لا تنظر إلى الساعة، مجموعة قصصية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1999.
- العالم ناقصاً واحد، رواية، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد 1996، دار أسامة للنشر، عمّان، 1999، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2017.

- رجل خلف الباب، مجموعة قصصية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1994
- أشياء لم تحدث، مجموعة قصصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، 1992.
- الفراشة، مجموعة قصصية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986.
- الشخص الثالث، مجموعة قصصية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1985.

t.me/read4lead

انضم للقناة وتابع جديد مكتبة
اضغط هنا

- أمْدَاك، أمْدَاني: شتيمة تعني أصابك أو أصابني الغم وتصاحب بحركة اليدين كمن يرمي في وجه الآخر حفنتي تراب.

ميسلون هادي

أخوة محمد

"إن واحداً من عوامل التجويد والرفعة التي أشرت إليها. وهي سمة أخرى من سمات فن ميسلون القصصي. هو أنها تطرح (فلسفتها) حول صراع دوافع الموت والحياة من خلال وقائع و(حكايا) يومية بسيطة. فقصصها. هي قصصنا.. وأبطالها هم نحن تحديداً... نرى فيهم ملامحنا وهوياتنا وأقدارنا."

د.حسين سرمك حسن

"فهي الحالمة الكبرى بالنسبة لأبطالها الحالمين. أو المأخوذين إلى عالم الخيال اللامتناهي. وهي متأملة جيدة للحياة والناس والأشياء. "

نازك الأعرجي

تواصل القاصة والروائية العراقية المبدعة ميسلون هادي. مشروعها السردي الأنيق من غير ضجة وزعيق تاركة لإبداعها ليعلن عنها. وعن مشروعها السردي هذا في خلق يقرب من التنسك والتصوف والزهد في بهرج الشهرة والدعاية.

شكيب كاظم